مُسلمُون وأقبَاط

من المهـــد إلى المجـــد

الطبعـــة الأولـــى

١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م

القاهرة: ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر

ص. ب: ٣٣ البانوراما - تليفون: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)

بيروت: ص. ب ٨٠٦٤ هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣

فاكس: ٨١٧٧٦٥ (٩٦١)

جمال بدوى

مُسلمُون وأقبَاط

من المهد إلى المجد

دار الشروق

وحدة الأصل المصري

هذا «التاريخ» الذى نقرؤه لن تكون له قيمة عملية إذا لم نهضمه كما نهضم الطعام، ثم نتمثله داخل أمعائنا ليتحول إلى عصارة خلوية تعمل على تجديد الخلايا، واستمرار الحيوية والنشاط للجسم، والوعى بحركة التاريخ عنصر فعال فى بناء الشخصية المصرية، وتعميق الشعور بالانتماء الوطني، والربط بين الماضى والحاضر والمستقبل فى منظومة جمالية نرى فيها شخوص الأجداد حية ونابضة تحكى لنا ملحمة الكفاح العظيم من أجل بناء مصر العتيقة التى بهرت الدنيا بالعلم والنور والفضيلة، وتحفزنا إلى العمل والصبر والجدية، والتقدم نحو المستقبل بخطى ثابتة، وقلوب واعية، وعقول ناضجة. وفى تاريخنا قوة ديناميكية قادرة على إحباط التحديات التى تسعى إلى زحزحة مصر عن موقعها القيادى وتهميش دورها المحورى فى الشرق الأوسط. ولأن تاريخنا هو أطول تاريخ فى حياة الأمم والشعوب فهو مليء بالتجارب والعبر والدروس، زاخر بالأمجاد

والكبوات، والانتصارات والانتكاسات . . ومن شأن هذه التجارب الثرية أن تزرع فى نفوسنا الثقة، والأمل، والتفاؤل، وتنزع منها الخوف والقلق والإحساس بالضياع .

إن الشعوب التى عاشت على هامش التاريخ - مثل بنى إسرائيل - تصطنع لنفسها تاريخًا، لتعطى شعبها إحساسًا زائفًا بالقدم، وتحفزه على البقاء والاستمرار قبل أن يكتشف الأكذوبة الضخمة التى صنعتها الأساطير الصهيونية عن الشعب المختار . . واليهودى المضطهد. وهناك شعوب وصلت إلى قمة النفوذ والمال والقوة ولكنها تفتقر إلى التاريخ لأنها حديثة التكوين، فما بالك بشعب يضرب بجذوره فى عمق الزمن إلى بواكير الحياة البشرية، وظهر على مسرح التاريخ المكتوب، وأرسى لبنات الحضارة الأولى، يوم كان الآخرون يسيحون فى الصحراء ويقطعون الفيافي، ويعبرون الأنهار بحثًا عن الكلأ والزاد على حواف الوادى الأخضر«!!».

إن النهضة الحضارية التى نسعى إليها لا بد أن تستجلى الماضى كله ونحن نتقدم نحو الغد، حتى يكتمل لدينا الوعى بالمكونات الثقافية للشخصية المصرية. أوروبا فعلت ذلك وهى تستشرف عصر النهضة بعد سقوط القسطنطينية، فاستخرجت تراث اليونان والرومان من تحت الأكفان، ونفخت فيه من روحها، وانطلقت منه إلى إبداعات الثقافة والفن والأدب والفلسفة والعلم والرياضة والعلوم السياسية. وكان عصر النهضة هو القاعدة التى انطلق منها العقل الغربى إلى آفاق العصر الحديث حتى وصل بأهل الغرب إلى القمر«!!».

الشعوب العظيمة لا تتنكر لماضيها، ولا تلوث تاريخها، وتستخرج أروع ما فى هذا التاريخ لتجعل منه نبراسًا يهديها إلى المستقبل الواعد. ونحن لن نستخرج تراث اليونان أو الرومان لأننا جربنا هذا الدواء المر ألف سنة فلم تتقبله الشهية المصرية أو الذوق المصري، ولفظه لأنه يتناقض مع المكونات الأولى للثقافة المصرية منذ فجر التاريخ. تراث اليونان هو العقل المحرك لدولة الرومان، ويقال فى ذلك: إن الرومان إذا كانوا قد استعمروا اليونان بالسلاح، فإن اليونان استعمروا الرومان بالعلم والعقل والفلسفة. وقد جاءنا الإغريق محمولين على سنابك خيل الإسكندر الأكبر، وقد حاول أن يتملق الديانة المصرية ويتقرب إلى كهنتها، ولكن المصريين لم يقتنعوا بالوثنية الإغريقية التى تتناقض مع معتقداتهم الأصلية واستمسكوا على الدوام بديانتهم، واعتبرو المذاهب الإغريقية صورة مزيفة لها تستنفر مشاعرهم، فالأعجب - كما يقول الدكتور إبراهيم نصحى - أنه لم يقم دليل واحد على أن الديانة الإغريقية استهوت ولو نفرًا قليلاً من المصريين«!!».

وما قلناه عن موقف المصريين من ديانة الإغريق وثقافتهم نقوله عن موقفهم من المعتقدات الرومانية التى كانت تأمر الناس بعبادة الإمبراطور، فرفضوا هذه الديانة الإمبراطورية واحتقروها. ولم تؤثر الثقافة اليونانية ومن بعدها الرومانية فى شخصيتنا أو ثقافتنا أو لغتنا إلا بالقدر الذى فرضته علينا قوة القهر والاستيطان المسلح، فلما زال القهر وانفك الاستيطان، رحلوا ورحلت معهم معتقداتهم وأديانهم ولغاتهم. على حين استقبل المصريون الديانة المسيحية بالترحيب، واعتنقوها رغم أنف أباطرة روما وبيزنطة، ودخلت المسيحية - بآدابها

وسموّها ـ فى تضاعيف الشخصية المصرية، ثم تتكرر الصورة عند قدوم الإسلام، ويرحب به المصريون وينتقلون إليه عن طيب خاطر ودون قهر أو إكراه. وعندما تبحث عن عوامل الرفض والقبول للديانات الوافدة، فلا بد أن تبحث عنها فى أعماق الشخصية المصرية التى اتسمت بالقوة والحيوية وإدراك الحقيقة البسيطة المجردة، وستجدها فى الفطرة الدينية والشحنة الزاخرة التى تفاعلت فى نفس المصرى منذ أن وجد نفسه على أرض مصر الطيبة، ومنذ أن راقب البذرة فى التربة وهى تنمو وتنبت وتخضر ثم تؤتى ثمارها، فأدرك أن الحياة تتجدد ولا تفنى، وأن الحى الذى لا يموت لا بد وأن يكون إلهًا.

سر القوة الكامنة

إن الوعى بالتاريخ سيدفع بنا إلى داخل قدس الأقداس لنبحث عن سر القوة الكامنة التى جعلت المصريين باقين على قيد الحياة برغم المحن والكوارث التى حاقت بهم، وكل واحدة منها كفيلة بأن تقصم ظهر أصلب شعب، وما أكثر الشعوب التى لم تصمد أمام عوادى الزمن أو قوى الشر، ولك أن تسأل: أين السومريون والأكّاديون والكنعانيون والبابليون وكل الشعوب التى واكبت مسيرة المصريين القدماء؟

لن تجد لهم ذكرًا إلا فى الكتب المقدسة التى روت لنا أحاديث عاد وثمود كمثل على الشعوب التى بادت بفعل التآكل الذاتي، أو بفعل النقمة الإلهية، أو بفعل قوى قاهرة، فلم تصمد أمامها مثلما صمد هؤلاء الذين عاشوا على ضفاف النيل ـ ولا يزالون ـ وذهب الدخلاء

والأغراب وبقيت مصر . فما هو السر الذى حفظ للمصريين هذا الربيع الدائم، والوجود الأبدي، والتواصل التاريخي«!!».

إن السر يتلخص فى تعويذة واحدة اسمها «الوحدة الوطنية» ولا نعنى بها الوحدة السياسية التى تمت على يد الملك «مينا» حين نجح فى توحيد مملكتى الدلتا والصعيد فى كيان واحد، هو أقدم وأعرق وأبقى كيان سياسى فى تاريخ البشر، وإنما الوحدة التى نعنيها هى وحدة المصريين الأقدمين فى كيان بشرى سبق ظهور الكيان السياسى بألوف السنين. وكان تمهيداً له. إذ لا يمكن تصور قيام كيان سياسى بين عناصر بشرية متنافرة أو متناحرة.. والصحيح أن يتحقق الانصهار والانسجام بين أبناء الوطن الواحد، ثم يأتى الكيان السياسى الواحد تتويجًا لهذه الوحدة. والعكس صحيح، فعندما تتقطع الروابط بين عناصر الأمة، يتمزق الكيان السياسي، ويعود كل فصيل إلى أصله، كما حدث لشعوب الاتحاد السوفيتى والاتحاد اليوغسلافى فى البلقان.

من حقنا نحن أحفاد الأقدمين أن نتعرف على الأجداد الذين شكلوا نواة مصر البشرية، ولن أدخل بك فى متاهات النظريات التى شغلت بال علماء الأجناس القديمة «الأنثروبولوجي» حول الأصول الجنسية للمصريين، وتستطيع أن تستمتع بثمرات هذه الاجتهادات العلمية إذا تصفحت الجزء الثانى من موسوعة «شخصية مصر» للعلامة جمال حمدان، ففيها الكفاية. كذلك لن أستدرجك إلى مجالس الجدل البيزنطى الذى يثور بين الحين والحين ويضع فى حلوقنا أحجاراً تسد علينا منافذ التنفس، مثل: هل نحن فراعنة؟ أم

عرب؟ أم أفارقة؟ أم من شعوب البحر الأبيض؟ أم أننا كل هؤلاء؟ مما يعنى أننا شعب هجين ليس له أصل واحد؟ وأن مصر تجمع عشوائى من شعوب وافدة «!!» وهذه الفكرة الخبيثة كان يرددها «كرومر» لينزع عن المصريين أخطر سلاح يهدد الاحتلال الإنجليزي، وهو «الوحدة الوطنية»، ويزعم أن مصر الحديثة خلطة من المسلمين وأوروبيين وآسيويين وإفريقيين، بما يظهر مصر وكأنها «بلد غير محدد الحدود» وكان الهدف من هذه المزاعم الاستعمارية هو إطلاق يد الاحتلال فى بلد ليس له صاحب «!!».

أصل المصريين

ولكى نتعرف على الصورة البشرية للمصريين الأقدمين، سوف أقتبس لك عبارات ثمينة للعلامة الجليل الدكتور سليمان حزين أستاذ الجغرافيا البشرية الذى بحث هذا الموضوع بحثًا علميا فى كتابه «حضارة مصر - أرض الكنانة» فيقول بعد أن عرض لسكان مصر وتطور تكوينهم الجنسي، والعوامل التى كيفت ذلك التطور وأثرت فيه:

إن أول ما يسترعى النظر أننا شعب اشتركت فى تكوينه عدة عناصر، فاجتمعت له صفات جنسية منوعة، ولكن الشيء المهم أن العناصر المختلفة التى دخلت مصر فى أوائل تعميرها بالسكان كان أغلبها متقاربا من بعضه البعض فى تكوينه الجنسي، ويمت بصلة قريبة أو بعيدة إلى سلالة البحر المتوسط، أو هو متأثر بها تأثرًا ظاهرًا، ولقد ألّف من نسميهم «الحاميين الأولين» أساس المجتمع المصرى فى

نهاية عصر ما قبل التاريخ وبداءة العصر التاريخى «أى الفرعوني» وهم نزحوا من شرق إفريقيا إلى وادى النيل بما فى ذلك مصر، ثم أضيفت إليهم عناصر من نسميهم «الساميين» أتوا على شكل غزوات متتالية من غرب آسيا، وأثّروا فى ثقافة مصر من جهة كما أضافوا إليها عنصراً أو عناصر من سلالة البحر المتوسط التى اختلطت فى الشرق الأدنى ببعض عناصر أخرى من هضبة إيران والأناضول المجاورة من جهة أخرى، وفى بعض الأحيان كان عنصر الهضبة قويا وقريبا فى تكوينه من السلالة الأرمينية ذات الصفات الظاهرة فى عرض الرأس وارتفاعه وتقوس الأنف وارتفاع قنطرته، كما أن هذا العنصر الأرمينى غُذى فى عصور لاحقة بعناصر أخرى مستديرة الرأس (الأتراك) على أن هذه الإضافات جميعًا ما لبثت أن استوعبها عنصر البحر المتوسط الأصيل فى مصر، كما استوعب غيرها من المؤثرات التى أتت من شمال غرب مصر وشمالها، وامتازت ببعض الفئات الشقراء نسبيا، أو أتت من جنوب مصر وحملت معها بعض العناصر السوداء، فالشيء الواضح إذن أن الغزوات التى وصلت مصر لم تستطع أن تطغى على سكانها الأصليين فتبدل من مميزاتهم الجنسية تبديلاً تاما، وإنما أضافت صفا ت قليلة ظهرت فى بعض المناطق بصورة جلية، ولكنها ما لبثت أن تلاشت أو لطفت فى مجموع السكان.

وحول أثر الاختلاط العرقي يقول الدكتور حزين: إن مصر جمعت بين أمرين قد يبدوان متناقضين أول الأمر، وهما: اختلاط الدماء والمميزات الجنسية، ثم تقارب تلك الصفات وتشابهها إلى حد يصعب معه لمس الفوارق الجنسية بين مختلف السكان بصفة عامة.

وبعد أن يشرح الدكتور حزين المواصفات المكونة للجنس المصري، كالطول ولون البشرة وعرض الرأس، يقول: إن كل هذه الصفات وغيرها تختلط في السكان اختلاطًا يصعب معه تطبيق نظرية «نقاء الجنس» من جهة، كما يصعب تتبع أصول كل صفة من الصفات، وردها إلى مصدرها الأول من جهة أخرى. فالاختلاط في مصر أصله قديم، وقد لاحظناه بين سكان العصر الحجرى الحديث، ولكن من الواجب أن نستدرك فنقول إن هذا الاختلاط في الصفات الجنسية ليس معناه - ولا ينبغي أن يفهم منه - «الاختلاط في التكوين الشعبي» فالمصريون الحاليون ليسوا مؤلفين من «شعوب مختلطة» وإنما هم شعب واحد اختلطت فيه الصفات الجنسية وتعددت مصادر الوراثة، وفرق كبير بين الحالتين.

بل يمضى الدكتور حزين إلى ما هو أبعد فيقول: إن اختلاط الصفات الجنسية في شعب مصر كان على الدوام سرا هائلا من أسرار قوة هذا الشعب وحيويته ومقدرته على أن يحتفظ بشخصيته وأن يغالب الزمن ويبقى رغم أحداث التاريخ التى أتت على كثير من الأمم القديمة والوسيطة، ولقد وجد شعب مصر من تنوع صفاته وملكاته ما أعطاه مقدرة خاصة على أن يلائم بين نفسه وبين اختلاف الأيام والظروف والأحداث، كما أن قوة البيئة المصرية في الوادى وما يحيط به من صحارى جافة، قد ساعدت من جهتها على أن يحتفظ ذلك الشعب بكيانه وطابعه الجنسى الخاص على مر العصور.

ولا يرى الدكتور حزين عيبًا في أن تكون دماء المصريين اختلطت بدماء الغزاة؛ لأن المصريين أفادوا من ذلك: تنوع الصفات والملكات

بين الأفراد وفئات المجتمع، واستطاعوا رغم الاختلاط أن يبقوا على الدوام «أمة واحدة» ومن المعروف أن أغلب أمم التاريخ الكبرى فى العهود القديمة كاليونان، والعهود الوسيطة كالعرب، والعهد الحديث كبريطانيا، إنما استطاعت أن تحقق ما قامت به من دور خاص فى التاريخ بفضل تنوع تكوينها الجنسي. وأمامنا الآن تجربة هائلة فى الولايات المتحدة حتى تأتلف «أمة واحدة» من سلالات غاية فى التشعب.

المسلمون والأقباط

ويثور سؤال حول نصيب المسلمين المصريين فى السلالة المصرية القديمة، وهل صحيح أن الأقباط يمثلون هذه السلالة أصدق تمثيل لأن المسلمين تأثروا بالعنصر العربي؟ ويجيب الدكتور سليمان حزين: مثل هذا القول يحتاج إلى تصحيح من نواح عدة:

فأولا: ليست هناك «سلالة مصرية» بالمعنى العلمى الدقيق، وإنما سكان مصر يمتازون فى جملتهم بتوافر مجموعة من الصفات الجسمية أو الجنسية تشيع فى جملتهم، وتعطيهم طابعهم الجنسى العام، مما يتفق والاتجاه العلمى الحديث فى دراسة السلالات ودراسة التكوين الجنسى للأمم والشعوب.

ثانيًا: أما الطابع الجنسى العام للمصريين فقد وجد واتخذ صورته المميزة قبل أن يكون هناك «أقباط أو مسلمون» بل هو يرجع فى القليل إلى أواخر عصر ما قبل التاريخ، ولم تفعل الإضافات اللاحقة والجديدة أكثر من أنها عدلت بعض الصفات القديمة أو زادتها تنوعًا، ولكنها لم تقلبها رأسًا على عقب.

ثالثًا : ليس فى تاريخ مصر الطويل ما يدل من قريب أو بعيد على حلول سلالة محل أخرى، على أن شعبًا نازحًا طرد شعبًا أصيلاً، بل إن مصر - من هذه الناحية - تختلف اختلافًا ظاهراً عن العراق، فقد اكتسحته الغزوات اكتساحًا من الشرق أو الغرب أو الشمال، وغيرت معالم تكوين أهله الجنسى تغييراً واضحًا، كما طمست كثيراً من معالم حضارته من وقت لآخر، فتداولت عليه «أمم» لكل منها طابعه الخاص ليس فى المدينة وحدها، وإنما كذلك فى التكوين الجنسي، أما مصر فقد احتفظت بطابعها الذى لم يتحول إلا فى نطاق محدود، وحتى عندما جاء الإسلام، أثر العرب بعض التأثير فى مصر والمصريين، لا سيما فى المناطق القريبة من بلادهم فى شرق الدلتا. ولأن العرب كانوا - فى تكوينهم الجنسى - قريبين جدا من أهل مصر؛ لأنهم جميعًا متأثرون بسلالة البحر الأبيض، كما أن الغالبية الساحقة من المسلمين فى مصر لم يكونوا غزاة، وإنما هم فى الأصل أقباط تحولوا إلى الإسلام.

الحقيقة فى إطارها الصحيح

ويتخذ جمال حمدان من شروحات سليمان حزين حول قدم الطابع الجنسى للمصريين، ردا ضمنيا وتوضيحيا على النظرية الشائعة من أن الأقباط أقرب إلى تمثيل المصريين من المسلمين، ويرى ما تراه نعمات أحمد فؤاد من صحة هذا القول بالنسبة إلى «جزء» من المسلمين وليس كلهم، فليس كل المسلمين بالضرورة قد داخلتهم دماء عربية أو غير عربية، فهؤلاء إذن لا يقلون قربًا من المصريين القدماء

عن الأقباط . والأصح أيضًا أن نقول عن «معظم» الأقباط لا كلهم ذلك ، لأن الأقباط هم أيضًا قد داخلتهم بعض مؤثرات خارجية وإن تكن غير عربية أو إسلامية بالطبع ، وذلك من خلال الزواج المختلط مع بعض العناصر والجاليات المسيحية الأوروبية .

بل إن المسلمين الذين انحدروا من الأصل المصرى الأول ، دون التأثر بالدم العربي ، هم ببساطة شديدة أضعاف أضعاف أولئك الذين تأثروا به ، وهم بالتالى عشرات أضعاف الأقباط أنفسهم ، وهم من ثم أيضًا ليسوا «دخلاء» على مصر فى أى معنى ، ولا هم أقل «مصرية» فى الأصل عن الأقباط ، وإلا لكان معنى هذا أن الغالبية العظمى من المصريين «دخلاء» ، وهو توهم مختل على النقيض المطلق من الحقيقة العلمية التاريخية ، وانحراف منطقى على النقيض المطلق مع أوليات العقل .

وفى عبارة محددة يضع جمال حمدان الحقيقة فى إطارها الصحيح : إن معظم المسلمين المصريين ، أو الكثير منهم اليوم إنما هم معظم القبط المصريين ، أسلموا بالأمس ، بمثل ما إن أقباط اليوم هم بقية قبط الأمس الذين استمروا على عقيدتهم السابقة ، ومن هنا وحده أيضا قد نستطيع أن نتفهم وجهة نظر البعض أو تعبيرهم حين يقولون إن المصريين إما «قبط مسلمون» وإما «قبط مسيحيون» يقصدون أن كلمة «قبط» مرادفة لكلمة «مصري» . ولقد تكون هذه طريقة خاصة للتعبير عن «وحدة الأصل» بين الطائفتين ، ولكن الجوهر فيها سليم عمليا ، وهى تلك الوحدة بعينها . وعلى أية حال ، فقبل أخوة الدين والعقيدة وعوضا عنها ، هناك أخوة الوطن والعرق

بين الطائفتين، فالكل مصريون قبل الأديان وبعدها، وإذا صح التشبيه الشائع عن الزواج الطبيعى بين أرض مصر وفيضان النيل، فإن من الصحيح أيضًا أن ثمرته هى المصريون جميعًا، فالنيل أبوهم ومصر أمهم.

ولعل عباس محمود العقاد كان باحثًا عالمًا قبل أن يكون إديبًا متحمسًا حين لخص الموقف كله فى قضية الوحدة الوطنية بقوله الجامع: «ينقض التاريخ كل ما يقال عن التفرقة بين عناصر الوطنية المصرية، فمن الحقائق الواضحة أن المسلمين والمسيحيين سواء فى تكوين السلالة القومية، ولا فرق بين هؤلاء وهؤلاء فى الأصالة والقدم عند الانتساب إلى هذه البلاد، فإذا كان بين المسلمين والمصريين أناس وفدوا من بلاد العرب أو الترك، فبين المسيحيين المصريين كذلك أناس وفدوا من سوريا واليونان والحبشة ودانوا بمذهب الكنيسة المصرية أو بغيره من المذاهب المسيحية، ويبقى العدد الأعظم بعد ذلك سلالة مصرية عريقة ترجع بآبائها وأجدادها إلى أقدم العهود قبل الميلاد المسيحى وقبل بعثة موسى».

الإسلام والمسيحية
عداء أم إخاء؟!

بعد ستة قرون من المسيحية، ظهر الإسلام. وكانت المسيحية قد انتشرت في الشرق، ثم عبرت البحر المتوسط إلى الغرب، فقوبلت بالرفض والقمع طوال ثلاثة قرون، ثم اعترفت بها دولة الروم البيزنطية وصارت الديانة الرسمية للدولة، التي كانت تضم تحت سيادتها كل الدول المطلة على الشواطئ الجنوبية والشرقية لبحر «الروم». وفي القرن السابع الميلادي بدأ الاحتكاك بينها وبين دولة الإسلام الناشئة، وقامت بينهما حروب طاحنة انتهت باندحار الروم. وفي خلال مائة عام فقط كانت الشام ومصر وشمال إفريقيا قد تحررت من الاحتلال البيزنطي وانتقلت إلى حوزة دولة الإسلام العالمية التي سرعان ما امتد نفوذها من «كاشغر» على حدود الصين إلى ساحل المحيط الأطلسي وإسبانيا حتى جنوب فرنسا.

وإذا كانت الموجة الأولى من الصدام بين الشرق الإسلامي

والغـرب المسيـحى قد هدأت حـينًا، إلا أنهـا اندلعت مرة أخـرى فى مطلع القرن الثانى عشر الميلادى واستـمرت قرنين خلال ما يعرف بالحروب الصليبية، التى انتهت هى الأخرى باندحار الغرب وزوال المستعمرات والمستوطنات التى أقامها فى عقردار الإسلام، وسارت العلاقات بين الغرب والشرق فى خط بيانى يتراوح بين الارتفاع وبين الهبوط إلى أن بلغ الصراع ذروته فى الهجمة الاستعمارية التى شنتها أوروبا على عـالم الإسـلام فى القـرن التـاسع عـشر، وفرضت عليه هيمنتها السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية. ورغم انحسار موجة الاستعمار فلا يزال «الإسلام» هو الشبح الذى يؤرق مضاجع الغـرب، وعكف مفكرو الغرب المحدثون على تصوير الإسـلام فى صـورة العـدو اللدود للمسيـحية والخطر الذى يهدد بزوالهـا. وهم يعتمدون فى ذلك على إثارة الأحقاد الصليبية القديمة، وتفسير حركة الفتوحات الإسلامية على أنها كانت حربًا دينية، قام بها المسلمون لإزالة المسيحية وتصفية المسيحيين وإكراههم على اعتناق الإسلام!!

وفى مـثل هذه المغـالطات التـاريخيـة الكبـرى، يتعـذر على عـامـة النـاس حـتى فى عـصر الإنتـر نت - أن يحـركـوا عـقـولهم ويشـحـذوا ذاكرتهم، ويناقشوا هذه المقولات الكاذبة، ويفحصوا ما يقدم إليهم من فكر فاسد... ويتسـاءلون: هل حـقـا قـامت هذه الحـروب بين الإسـلام وبين المسيـحيـة؟ أم أنهـا كـانت ضـد دولة أوروبيـة جـاءت بجيـشهـا وحـديدها ونارها واحـتلت بلاد الشـرق طوال سـتة قـرون واستنزفت خيراتها وأموالها لتصنع به مجد روما وبيزنطة؟وهل كان أهل هذه البـلاد سـعداء تحت حكم الرومـان؟ أم ذاقـوا المرار والهـوان والذل والعبودية؟ وهل كان المسيـحيـون أحـراراً فى دينهم؟ أم أن هذه

الدولة الباغية أرغمتهم على اعتناق عقيدتها الوثنية، فلما دانت بالمسيحية صاغتها بما يوافق معتقداتها القديمة، وجعلت من مذهبها الملكى مذهبًا رسميا، فرضته على المسيحيين فى بلاد الشرق بقوة السلاح، فلما قاومت الكنائس الشرقية - وفى طليعتها كنيسة مصر - هذا القهر البيزنطي، لاقى المسيحيون من التعذيب والترهيب ما لطخ صفحات التاريخ بالدم والعار «!!».

إذا كان تاريخ الدولة الرومانية طافحًا بالعدوان على الديانة المسيحية، فإن تاريخ الدولة الإسلامية طاهر ونظيف وبريء من مثل هذا العدوان، ولو تصفحت تاريخ الإسلام على امتداد أربعة عشر قرنًا، فلن تجد فيه حادثًا واحدًا لصدام بين الإسلام والمسيحية، ولم يعرف تاريخ الدول الإسلامية كله حالة واحدة أكره فيها شخص على اعتناق الإسلام. والحروب التى اندلعت فى عصر الفتوحات لم يكن مسيحيو الشام ولا أقباط مصر طرفًا فيها، وإنما دارت المعارك وعقدت المعاهدات بين قادة الفتح الإسلامى وبين قادة الروم المدحورين، وكان موقف المسيحيين من العرب الفاتحين موقف التأييد والترحيب، لما تنامى إلى أسماعهم عن سماحة الإسلام وعدالة المسلمين واحترامهم لعقائد الغير، وتوقيرهم لعيسى عليه السلام، وأمه العذراء الطاهرة التى فضلها الله على نساء العالمين.

إن العلاقة الحميمة بين المسيحية والإسلام من الأمور المستقرة فى تراث الإسلام وتعاليمه ومبادئه، تراها واضحة جلية فى نصوص القرآن الكريم، وفى سلوك الرسول صلى الله عليه وسلم مع النصارى المعاصرين له، وفى سلوك المسلمين الذين اختلطوا بالنصارى،

فساروا فيهم مسيرة العدل والإنصاف والخلق الرفيع، فلم يعتدوا على عرض، ولم تمتد أيديهم إلى حرام ولم يتدخلوا فى شيء من معتقداتهم أو شعائرهم وصلبانهم وأديرتهم، بل كان لزامًا عليهم حماية الحرية الدينية من عبث العابثين وكيد الوثنيين.

لم يكن موقف الإسلام من النصرانية فى يوم من الأيام موقف عداء أو تربص، كما يشيع الجهلة والحاقدون، بل كان موقفا مشبعابالمودة والتعاطف والإخاء؛ لأن المسلم يجد فى قرآنه الكريم ذكر عيسى عليه السلام محاطًا بكل ما هو جليل وكريم، ويستشعر بهذا الإخاء الحميم بين رسولين ينتميان إلى جذر واحد هو «إبراهيم الخليل»، ويصدران عن عقيدة واحدة هى عقيدة التوحيد، ويسعيان إلى هدف واحد هو الارتقاء بالنفس الإنسانية إلى آفاق الطهر والعفة والفضيلة. وعندما تبحث عن موقع المسيح وأمه فى القرآن الكريم فسوف تصادفك هذه الآية الكريمة من سورة «آل عمران»:

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦) قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٤٧) وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ (٤٨) وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

وستجد فى حوادث التاريخ منذ بواكير الإسلام ما يشير إلى هذا التعاطف بين المسلمين وأهل الكتب السماوية عامة، والنصارى خاصة، فبعد سنوات قليلة من البعثة المحمدية قامت جيوش الفرس باحتلال بيت المقدس، وخربوا كنيسة القيامة وسرقوا الصليب الأعظم. وكان المسلمون على الرغم من صعوبة الاتصالات، يتابعون سير هذه الحرب فى قلق ولهفة، وكانت قلوبهم مع الروم لأنهم من النصارى، ولم تكن مع المجوس عبدة النار. كان المشركون فى مكة يعلمون تعاطف المسلمين مع نصارى الروم، فلما انهزموا اغتم المسلمون وفرح الكفار وأظهروا الشماتة، والتقى أحدهم بالصديق أبى بكر وجابهه بهذه الشماتة فعاجله الصديق قائلا: لا تعجل بالمسرة. فسيأخذ الروم بثأرهم. فقال له الكافر متهكما: كذبت. فقال أبو بكر - مع وداعته وحلمه -: بل كذبت أنت يا عدو الله. وهذا رهانى عشرة جمال على أن تغلب الروم المجوس قبل عام! وذهب الصديق إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وحكى له ما جرى، فهش وجهه ونصح لأبى بكر أن يرفع الرهان وأن يطيل المدة. فزاد أبو بكر الرهان إلى مائة بعير إن هزمت الفرس قبل تسع سنين. وصدق الله وعده، وانتصر هرقل الروم واستعاد الصليب الأعظم، وكسب أبو بكر الرهان، وفرح المسلمون. وفى هذه النبوءة بالنصر نزل قول الله تعالى فى صدر سورة «الروم»: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ

ينصرُ من يشاءُ وهُو الْعزيزُ الرَّحيمُ (٥) وعْد الله لا يُخْلفُ اللَّهُ وعْدهُ ولكنَّ أكْثر النّاس لا يعْلمُون ﴾ .

كان اغتباط المسلمين يومئذ بانتصار النصارى عظيما ، وظلت صلة الإخاء بين الذين اتبعوا محمداً والذين آمنوا بعيسى عظيمة ، وإن تكرر بين الفريقين ما كان من مجادلة بالتى هى أحسن ، على خلاف ما كان بين المسلمين وبين اليهود من تهادن فى أول الأمر ، ثم عداوة استمرت وكان لها من الآثار والنتائج الدامية ما كان سببا فى إجلاء اليهود عن جزيرة العرب جمعاء ، ومصداق ذلك قول الله تعالى فى سورة المائدة : ﴿ لتجدنَّ أشدَّ النَّاس عداوةً لِّلَّذين آمنُوا الْيهُود والَّذين أشْركُوا ولتجدنَّ أقْربهُم مَّودَّةً لِّلَّذين آمنُوا الَّذين قالُوا إنَّا نصارىٰ ذٰلك بأنَّ منْهُمْ قسِّيسين ورُهْبانًا وأنَّهُمْ لا يسْتكْبرُون ﴾ .

وفى تفسيره لهذا التفاوت بين موقف الإسلام من اليهود وبين موقفه من النصارى يقول الإمام الزمخشرى فى «الكشاف» : جعل الله اليهود قرناء المشركين فى شدة العداوة للمؤمنين ، بل نبه على تقدم قدمهم فيها بتقديمهم على الذين أشركوا ، ولعمرى إنهم لكذلك وأشد . وعن النبى صلى الله عليه وسلم : ما خلا يهوديان بمسلم إلا «همّا بقتله» وعلل ـ أى القرآن ـ سهولة مأخذ النصارى وقرب مودتهم للمؤمنين ﴿ بأنَّ منْهُمْ قسِّيسين ورُهْبانًا ﴾ أى علماء وعباد ، وأنهم قوم فيهم تواضع واستكانة ولا كبر فيهم . واليهود على خلاف ذلك ، وقد وصف سبحانه وتعالى النصارى برقة القلوب وأنهم يبكون حين سماع القرآن الكريم .

قصة أصحاب الأخدود

فى قصة «أصحاب الأخدود» يتبدى تعاطف الإسلام مع النصارى وما تعرضوا له من بلاء شديد من بعض الطغاة الذين قست قلوبهم، وأرادوا إكراههم على ترك عقيدتهم والارتداد عن دينهم، فأبوا وتمنعوا بعقيدتهم فشق لهم الطغاة شقا فى الأرض وملئوه بالنار، وكبوا فيه جماعة المؤمنين، فماتوا حرقًا. والقصة تجدها فى سورة «البروج»، والمفسرون على شبه إجماع على أن هذه الحادثة وقعت لنصارى «نجران» فى جنوب الجزيرة العربية، أما الطاغية فهو «ذو نواس» وكان على اليهودية، وعمل على إكراه قومه على الانتقال من المسيحية إلى اليهودية، فلما رفضوا صنع صنيعه الإجرامي، وقابله النصارى بالصبر والتضحية والاحتمال، واتخذ القرآن من صبرهم نموذجًا يحتذى به أصحاب العقائد. وفى تحليله لعواقب هذا الحادث البشع يقول الأستاذ سيد قطب فى كتابه الجليل «فى ظلال القرآن»:

كذلك تنتهى رواية الحادث وقد ملأت القلب بالروعة، روعة الإيمان المستعلى على الفتنة، والعقيدة المنتصرة على الحياة، والانطلاق المتجرد من أثقال الجسم وجاذبية الأرض، فقد كان فى مكنة المؤمنين أن ينجوا بحياتهم فى مقابل الهزيمة لإيمانهم، ولكن كم كانوا يخسرون هم أنفسهم فى الدنيا قبل الآخرة؟ وكم كانت البشرية كلها تخسر؟ كم كانوا يخسرون وهم يقتلون هذا المعنى الكبير: معنى زهادة الحياة بلا عقيدة، وبشاعتها بلا حرية، وانحطاطها حين يسيطر الطغاة على الأرواح بعد سيطرتهم على الأجساد! إنه معنى كريم جدا، ومعنى كبير جدا هذا الذى ربحوه وهم بعد على الأرض،

ربحوه وهم يجدون مس النار فتحترق أجسادهم، وينتصر هذا المعنى الكريم الذى تزكيه النار! وبعد ذلك لهم عند ربهم حساب ولأعدائهم الطاغين حساب.

وجادلهم بالتى هى أحسن

هل يجوز، بعد هذا البيان الواضح، أن يقال بأن الإسلام يعادى النصرانية ويعمل على زوالها؟ أو أن المسلمين أكرهوا المسيحيين على ترك دينهم؟! لقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يجادل نصارى العرب على اختلاف نحلهم على أساس مذاهبهم، وهو لم يكن يشتد فى جدالهم شدته فى جدال المشركين وعباد الأصنام، بل كان يحاجهم بالوحى عن طريق المنطق، ومن كتبهم وما جاء فيها بشأن التثليث وألوهية المسيح وألوهية مريم والصّلب والفداء... إلخ.

فكل هذه الأفكار أنكرها الإسلام إنكاراً صريحًا، ورفض كل ما يمكن أن يلقى ظلالا على فكرة التوحيد. ولن نتطرق إلى تفاصيل هذه الأمور، فمكانها كتب العقائد والمباحث الدينية وعلوم المقارنة بين الأديان، والذى يهمنا فى هذا المجال الكشف عما فى الدينين الكتابيين من مواطن اللقاء والدعوة إلى مكارم الأخلاق، والتعاون على البناء والتعمير.

يطرح الدكتور محمد حسين هيكل فى كتابه «حياة محمد» سؤالا جوهريا: هل فكر أحد من نصارى يومئذ فى هذا الدين الجديد وفى إمكان التوفيق بين فكرة التوحيد فيه، وبين ما جاء به عيسى؟ ويجيب هيكل: نعم، وآمن به كثيرون، ولكن الروم ـ الذين اغتبط المسلمون

بنصرهم واعتبروه نصراً للأديان الكتابية لم يكلف سادتهم أنفسهم مئونة البحث فى الدين الجديد، ولم يلبثوا أن نظروا إلى الأمر من ناحيته السياسية، وفكروا فيما يصيب ملكهم إذا تم لهذا الدين الجديد الغلب، لذلك بدءوا يأتمرون به وبأهله، حتى أرسلوا جيشًا عرمرمًا عدته مائة ألف فى رواية، ومائتا ألف فى رواية أخرى، مما أدى إلى غزوة «تبوك» وقد انسحب فيها الروم أمام المسلمين الذين خرجوا و«محمد» على رأسهم لدفع عدوان لم يكن له ما يسوغه.

ويستطرد هيكل: من يومئذ وقف المسلمون والنصارى موقف خصومة سياسية، حالف النصر فيها المسلمين قرونًا متتالية، امتدت إمبراطوريتهم فى أثنائها إلى الأندلس غربًا وإلى الهند والصين شرقًا، وآمنت أكثر أجزاء هذه الإمبراطورية بالدين الجديد واستقرت فيها لغته العربية. فلما آن لدورة التاريخ أن تدور، طرد النصارى المسلمون من الأندلس، وحاربوهم الحروب الصليبية، وأخذوا يطعنون فى دينهم ونبيهم طعنًا كله فحش وكذب وافتراء، ونسوا فى فحشهم ما بلغ «محمد» صلى الله عليه وسلم فى أحاديثه، وما بلغ القرآن فى الوحى الذى نزل عليه، من رفع مقام عيسى عليه السلام إلى المستوى الذى رفعه الله إليه.

لقد أصاب هيكل كبد الحقيقة، ولسوف نعرض عن ذكر النفايات والمطاعن التى وردت فى كتب الأوروبيين للحط من شأن الإسلام ونبى الإسلام وكل ما يمت إلى الإسلام، نعرض عن ذلك ترفعا عن ترويج الفاحشة، وثقة فى أن هذه السفالات لم ولن تؤثر فى صلابة الإسلام بأكثر مما يؤثر الغبار فى الحجر الصلد، ولكن يجب أن ننتنبه

إلى أن هذه المفتريات تجد من هؤلاء من الذين ينسبون أنفسهم إلى العلم وحرية البحث إصرارا على تشويه صورة الإسلام، وإثارة الضغائن بين المسلمين والمسيحيين، وتخويف المسيحيين من مكائد مزعومة وأوهام باطلة سوف تحل بهم إذا كتب للإسلام أن يسترد عافيته ويستعيد مكانته التى كانت له فى القرون الخالية.

من واجبنا أن نتصدى لهذه الأفكار السامة التى تسعى إلى إيغار صدور المسيحيين ضد إخوانهم المسلمين، وخاصة فى بلادنا العربية حيث يتعايش المسلمون والنصارى فى وئام وصفاء، ولم يذكر التاريخ فى صفحاته الطوال - والحمد لله - مصادمات بين أبناء الدينين مثلما حدث بين الكاثوليك والبروتستانت فى أوروبا، ولن نسمع عن مثل تلك المذابح التى أوردها المستشرق توماس أرنولد فى كتابه «الدعوة إلى الإسلام» والتى صاحبت انتشار المسيحية منذ القرن الرابع واستمرت حتى نهاية العصور الوسطى، وحسبنا ما قام به خلفاء الإمبراطور قسطنطين الأول من اضطهادات لإرغام غير المسيحيين على اعتناق المسيحية، وما قام به «شارلمان» فى القرن الثامن من فرض المسيحية على السكسون والبافاريين والآفار بحد السيف، حتى إنه قتل من السكسون وحدهم فى مذبحة «فرن» الشهيرة أكثر من أربعة آلاف جملة واحدة، وما ارتكبه الفرسان التيوتون ومنظمة السيف من وحشية وقسوة بالغة فى محاولتهم نشر المسيحية فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر بين البروسيين واللتوانيين وغيرهم من الشعوب السلافية قرب شاطئ البلطيق، وما قام به ملك النرويج

«أولاف ترايجنيسون» الذى كان يقوم بذبح هؤلاء الذين أبو الدخول فى المسيحية أو بتقطيع أيديهم وأرجلهم أو بنفيهم وتشريدهم. وبهذه الوسائل نشر الدين فى «فيكن» بأسرها.

فإذا طويت - على الألم - هذه الصفحات المخزية فى تاريخ أوروبا وانتقلت على الفور إلى الشرق، فلن تجد فى تاريخ الإسلام مع النصارى ظلا من هذا القهر، ولن تعثر على قطرة دماء مسيحية أريقت على سبيل الاضطهاد والعنت، وما عليك إلا أن تقارن بين حياة النصارى فى ظل الإسلام وحياتهم فى ظل الدولة الرومانية التى كانت تنتسب إلى المسيحية، لتعرف الفرق الشاسع بين حضارة تحترم العقائد والأديان، وحضارة تضطهد المخالفين.

ويروى الأستاذ زكى شنودة فى الجزء الأول من «موسوعته تاريخ الأقباط» طرفًا من هذه الاضطهادات، فيقول: قاست الكنيسة القبطية من الاضطهادات ما لم تقاسه كنيسة أخرى فى العالم، فما بدأت المسيحية تنتشر فى البلاد المصرية وتتغلب شيئا فشيئا على الوثنية، حتى فزع قياصرة الرومان وولاتهم فى مصر؛ لأن المملكة الرومانية كانت تعتبر الدين المسيحى عدوا لها، وخطرا يهدد كيانها، فقاومته أشد المقاومة، واضطهدت المؤمنين به شر اضطهاد، وأوقعت بهم أقسى صنوف التنكيل والتعذيب والقتل فى أبشع صوره، وعقدت العزم على إبادتهم. إلا أن المسيحيين استمسكوا بإيمانهم واستماتوا فى الثبات عليه، واستشهدوا فى سبيله أفواجًا، وظلت يد الطغيان تحصدهم حصدًا.

ويقص علينا المؤلف سلسلة هذه الاضطهادات، والتى بدأت فى

عصر «نيرون» سنة ٦٤ ميلادية الذى أشعل النار فى روما، ثم اتهم المسيحيين بإحراقها، وشن عليهم حملة شعواء فى كل أنحاء المملكة الرومانية، مبتدعا أبشع الوسائل فى الفتك بهم، فكان يضعهم أحياء فى جلود الحيوانات ويطرحهم للكلاب تنهشهم، ويطلى بعضهم بالقار (الزفت) ويعلقهم على المشانق ثم يشعل فيهم النار ليجعل منهم مشاعل يستضيء بها وهو يسهر بالليل، وكان يمتع نفسه بمنظر أطفالهم والوحوش تمزقهم وتلتهم أشلاءهم.

ثم يسرد زكى شنودة سلسلة المذابح التى بلغت ذروتها عام ٢٨٤ ميلادية، وهى السنة التى جلس فيها الإمبراطور «دقلديانوس» على عرش الدولة الرومانية، وصمم على إبادة المسيحيين حتى تصل دماؤهم إلى ركبة فرسه، وهدم الكنائس، وأحرق الكتب، وقبض على الأساقفة، وأغرقهم فى مذابح لم يسبق لها نظير فى التاريخ. وينقل عن المؤرخ «يوسابيوس» قوله: إنه ليعسر على الكاتب الماهر أن يصف مقدار ما تجرعه الشهداء فى مصر من ألوان العذاب القاسية والآلام التى تشيب من ذكرها النواصي، فقد كانوا يأتون بالأقباط ويشقون أجسادهم بالخناجر، وينزعون عنها الجلد عضوا عضوا حتى تزهق أرواحهم، أما النساء فكانت الواحدة منهن تربط من إحدى قدميها وترفع فى الهواء بآلة مخصصة لذلك، وتظل معلقة كذلك بصورة تنفر منها الإنسانية حتى تزهق روحها، وكانوا يقربون غصنين قويين من شجرتين متقاربتين، ثم يجيئون بالشهيد ويربطونه بهذين الغصنين ثم يتركونهما ليعودا إلى وضعهما الأول، والشهيد بينهما، فتتمزق أوصاله وتسحق عظامه وتتطاير أشلاؤه. وقد شاهدت بعينى بينما كنت واقفا بقرب النطع جمعا غفيرا من المسيحيين فكان بعضهم

يحرق فى أتون النار ، وبعضهم تجز رءوسهم بالسيف ، وكانوا من الكثرة بحيث إن السيف قد ثلم حده من كثرة قطع الرءوس ، وكذلك السيافون تعبوا وخارت قواهم فكانوا يستريحون هنيهة ريثما يستردون أنفاسهم» .

كان هذا مسلك الحضارة الرومانية مع أتباع المسيح . فماذا كان مسلك الحضارة الإسلامية معهم؟

قصة الفتح (*)

قصة الفتح الإسلامى لمصر من أشد حلقات التاريخ المصرى إثارة، ليس بسبب ما صاحب الفتح من أحداث ومعارك، وإنما بسبب

(*) فى صحبة الإمام الأكبر الدكتور محمد سيد طنطاوى شيخ الأزهر، والعالم الجليل الدكتور إسماعيل الدفتار، والإعلامى البارز أحمد فراج - ذهبت إلى العريش بدعوة كريمة من محافظها اللواء على حفظي، للاحتفال بمرور أربعة عشر قرنا على الفتح الإسلامي، وذكرى أول لقاء بين العرب الفاتحين وأقباط مصر، فكانت العريش أول محطة يتوقف عندها جيش الفتح، وتصادف أن كان ذلك اليوم عيد الأضحى الثامن عشر من تاريخ الهجرة النبوية، وفى عهد الخليفة العادل عمر بن الخطاب، ويومها ضحّى قائد الجيش الفاتح عمرو بن العاص بكبش فداء عن جنده، وبعد راحة قصيرة استأنف المسير إلى قلعة الفرما، فحاصرها حتى استسلمت له حاميتها الرومية، وكانت تلك فاتحة الفتوحات التى انتهت بسقوط حصن ببابليون، أكبر الحصون البيزنطية، ثم تسليم الإسكندرية عاصمة الديار المصرية منذ بناها الإسكندر المقدونى قبل ألف عام من هذا الفتح العظيم الذى غير وجه الحياة فى مصر وانتقل بها إلى مرحلة جديدة ومزهرة فى تاريخها الطويل.

ما نتج عنه من آثار وتطورات هائلة فى البنية المصرية من حيث الدين واللغة والثقافة. أما عن مسيرة الفتح، فقد مضت بطريقة تغاير ما جرى من فتح العراق وإيران والشام، من معارك ضارية وصدامات هائلة، وباستثناء المعركة التى دارت حول حصن بابليون وهليوبوليس، ثم معركة فتح الإسكندرية، لا تصادفنا فى سجلات الفتح معارك طاحنة. وهى ظاهرة تستوقف نظر الباحث المدقق فى تحركات الجيوش الجرارة فى عالم لم تكن تُسمع فيه إلا قعقعة السلاح بين قوات الفرس والروم، وهما القوتان الأعظم فى ذلك العصر، تتبادلان الهزائم والانتصارات. ثم بزغت قوة الإسلام لتبارز القوتين معًا، وفى وقت واحد، فيتحقق لها النصر المؤزر رغم فارق العدد والعتاد، حتى إذا امتدت رقعة النزال إلى الأرض المصرية، وجدنا كفة الميزان تميل لصالح العرب، وتنبو عن الروم، ولا يمكن تفسير هذه الخاصية الفريدة فى تاريخ الفتوح الإسلامية إلا إذا استحضرنا موقف أهل البلاد - الأقباط - من الفريقين المتحاربين، وبقدر انحيازهم إلى أحدهما تكون هزيمة الآخر. فإلى أى الفريقين كانت تميل القلوب وتهوى الأفئدة؟

هل كان من المتصور أن يقف الأقباط إلى جانب الروم وينصروهم على العرب؟ وهل ينسى الأقباط ما جرى لأجدادهم وآبائهم ورهبانهم على أيدى الدولة الرومانية فى عهدها الوثني؟ وما جرى لهم على أيدى الروم من عذاب وقهر وسحل، لا لسبب إلا أن يقولوا ربنا الله؟ ألم يسمع الأقباط بما جرى للروم فى الشام واندحار جيوشهم الجرارة أمام القلة المؤمنة الزاحفة من جزيرة العرب، وكيف جاء «هرقل» بنفسه لقيادة المعارك وإنقاذ ما يمكن إنقاذه، فلم يفلح فى

وقف عجلة التدهور وهى تهوى بالدولة الرومانية إلى الحضيض فاستسلم للقضاء الذى حُمّ، وغادر سوريا مدحوراً والدموع تملأ عينيه وتحجب عنه رؤية المشهد الأخير فيودعها بزفرات ملتاعة : سلام عليك يا سوريا سلاما لا لقاء بعده . ومن المؤكد أن الأقباط بلغهم نبأ العهود والمواثيق التى أبرمها المسلمون الفاتحون مع أهل الشام، وفيها أطلقوا الحرية الدينية من قمقمها، وللناس أن يعتنقوا ما شاءوا من عقائد، فلا جبر ولا إكراه، ولا تدخل فى شئون الكنائس والأديرة وصلبانها وأموالها، وأن للناس أن يعملوا على تعمير الأرض وأن لهم ما للمسلمين من حقوق، وعليهم ما على المسلمين من واجبات . وقد حملت إليهم الركبان خبر الخليفة عمر حين جاء ليتسلم مفاتيح بيت المقدس من بطريركها «صفرنيوس» توثيقا للعهد المكتوب، وكيف امتنع الخليفة عن أداء الصلاة لما حان وقتها وهو فى كنيسة القيامة، تحرزا من أن يأتى من بعده من يدعى للمسلمين حقا فى مكان صلى فيه عمر«!!» .

شمس الروم تغرب

أبعد كل هذا كان للأقباط أن يساندوا الدولة التى كانت مصدراً لعذابهم وشقائهم على امتداد سبعة قرون إلا ثلاثين عامًا؟ أو أن يطيلوا فى عمرها، وشمسها تميل نحو السقوط فى ليل دامس ليس له من بعده شروق؟

إن الذين يُهوّنون من قيمة الدور المصرى فى نجاح الفتح، إنما يغضّون من شأن المصريين، وينتقصون من فهمهم الواعى لحركة

التاريخ، وقد ختمت على مصير الدولة الرومية بالفناء، وآذنت ببزوغ فجر قوة صاعدة جديدة تجمعها بالمسيحية وحدة الإيمان بالخالق، وتحمل إلى العالم رسالة تحرير الشعوب من الظلم والجبروت والطغيان. ومن خلال المعايشة والرؤية العينية أدرك المصريون أن المسلمين ما جاءوا لمصادرة دينهم، أو المساس بعقائدهم، أو استعبادهم وإذلالهم، وإنما جاءوا لإزاحة القوة الدخيلة الغاشمة التى أذاقتهم الهوان والعنت والاضطهاد، فكان حريا بأقباط مصر أن يستقبلوا رسل الدين الجديد بالبشر والترحاب، وأن يفتحوا لهم قلوبهم وبيوتهم، وهم واثقون أنهم لن يثلموا عرضًا، ولن ينهبوا مالاً، ولن يرتكبوا إثمًا، ولن يفعلوا ما درجت عليه جيوش الأمم الغابرة باسم حق الفتح، فيستبيحوا الأعراض والأموال والمحارم إلى أن تروى الوحوش الكاسرة ظمأها.

والذين يتهمون المصريين بالسلبية وعدم التصدى لجيش الفتح الإسلامي، لا يقلون جهلاً عن أولئك الذين يتهمون «المقوقس» بالعمالة والتواطؤ مع العرب والتنازل لهم عن عقد تملك مصر، كأن مصير البلاد كان متوقفًا على توقيع المقوقس أو امتناعه، ولم يكن قدرًا مقدورًا منذ خرجت جيوش الفتح فكانت لها الغلبة على ما كان لدى الفرس والروم من جيوش توازى أضعاف أضعاف قوة الاحتلال المحصورة فى مصر. وتفنيد هذه الفرية التى التصقت بالمقوقس يتطلب البحث حول شخصية المقوقس، وهل كان مصريا أم روميا؟ وهل كان على مذهب الكنيسة المصرية أم على مذهب الدولة الحاكمة؟

والمؤكد أنه كان يجمع في يده زمام السلطتين الدينية والسياسية، وهو القائم على شئون البلاد والمتصرف في أمورها، أما الزعيم الروحي للبلاد ورئيس كنيستها البطريرك «بنيامين» فقد كان لائذاً بأديرة الصحراء فراراً بدينه من بدعة «المشيئة الواحدة» التي أراد هرقل أن يفرضها بالعنف على كل الفرق المسيحية، وكان ذلك في بداية «عهد العذاب الأعظم» الذي دام عشر سنوات كانت نهايتها قدوم العرب إلى مصر. ولم يكن في مصر غير المقوقس مفوضًا في تقرير مصير البلاد، إن حربًا أو سلمًا، وهو في هذا المأزق يفاوض العرب ويساومهم وتتحرك الرسل بينه وبينهم، وهو في جميع الأحوال يدرك المصير المحتوم للدولة التي ينتمي إليها ويتحدث باسمها، ويعرف أنها في طريق الزوال، وأن عليه أن يحقن دماء جيشه، ويضمن لهم سلامة الرحيل إلى ديارهم قبل أن تنالهم سيوف العرب.

لقد اختبر المقوقس طبيعة العرب الفاتحين، وأدرك أنه بإزاء طراز جديد من البشر «الموت أحب إليهم من الحياة، والتواضع أحب إليهم من الرفعة. ليس لأحد منهم في الدنيا رغبة ولا نهمة. جلوسهم على التراب، وأميرهم كواحد منهم، ما يعرف رفيعهم من وضيعهم، ولا السيد فيهم من العبد. إذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها أحد، يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون في صلاتهم» ولقد بذل الرجل أقصى ما يستطيع لتفادي الحرب، وله في محنة الشام عبرة، وحاول أن يسلك مع قائد الفتح مسالك شتى: التهديد حينًا والرشوة حينًا، والتخويف بجحافل الروم المقبلة من البحر. ولم تفلح كل هذه المداخل في إثناء الفاتح العربي عن عزمه الذي من أجله كانت الفتوح، وانتهت المفاوضات بالاتفاق

على بنود محددة حملها المقوقس وأبحر إلى القسطنطينية ليعرضها على سيده الإمبراطور. فكان جزاؤه التوبيخ والتقريع والإهانة، ثم الانزواء فى غياهب التاريخ، فلم نعد نسمع له ذكراً. وتجهز «هرقل» ليأتى بنفسه إلى مصر ليدير المعركة الفاصلة دون اعتبار لما جرى له فى سوريا، ولكن الموت كان أرحم به من المصير الذى كان ينتظره فى ربوع مصر، فمات فى فبراير سنة ٦٤٠ ميلادية. وعجز ابنه قسطنطين عن القيام بما كان يعتزمه أبوه، ومضى المسلمون يقتحمون الحصن الذى كانت تتركز فيه القوات البيزنطية، وبعدها تقدم «عمرو» على رأس جيشه قاصداً الإسكندرية، فدخلها دخول الظافرين رغم انفتاحها على بحر (الروم) وما كان يأتيها من إمدادات. ومن هذا اليوم صارت مصر واسطة العقد فى دولة الإسلام الظافرة، بل الدرة الغالية فى جبين الإسلام بحكم تاريخها القديم، ومجدها العريق، وحضارتها التليدة. فهل كان المقوقس أو عمالته أو خيانته قادرة على تعطيل هذه المسيرة التى كانت حلقة فى حركة الفتوح الكبرى«!!».

فى مؤتمر الجابية

متى وكيف صدر القرار بفتح مصر؟

حول هذه القضية دارت أقاويل وحكايات أقرب إلى الخرافة منها إلى الحقائق المعتبرة. من ذلك أن «عمرو» خرج بالجيش سرا من فلسطين دون إذن أو علم الخليفة عمر (!!) ومنها أن عمر سمح لعمرو بفتح مصر، وأبلغه أنه سوف يبعث إليه برسالة: إن وصلته قبل

بلوغه الشجرتين ـ عند خط الحدود فى رفح ـ كان عليه أن يعود من حيث أتى ، أما إن تسلمها بعد اجتياز الحدود فعليه أن يمضى على بركة الله(!!). والهدف من هذه الروايات التى ابتدعها خيال الكتاب ، هو تمجيد شخصية الفاتح عمرو بن العاص ، ووسمه بصفات الدهاء والتحايل للنفاذ إلى الغرض ، حتى لتزعم الرواية أن رسول الخليفة لحق بعمرو قبل أن يجتاز رفح ، ولأنه يعرف محتواها فقد تشاغل عن استلامها إلى أن عبر الحدود ، فمضى فى طريقه دون أن يخالف أمر الخليفة . والذين يرددون هذه الأقاويل لا يعرفون الكثير عن شخصية عمرو ولا القليل عن شخصية عمر .

ذلك أن الفاتح المغوار عمرو بن العاص فى غناء عن هذا التمجيد المصطنع ، وله من تاريخه المسطر فى سجلات الفتح ما يغنيه عن هذا التلفيق ، فقد كان على رأس أحد الجيوش الأربعة التى أطبقت على الشام ، وكان نصيبه فتح بيت المقدس والأردن ، فكيف نتصور لقائد فى مكانته أن «يهرب» بالجيش إلى مصر دون علم الخليفة الذى كان متواجداً فى ذلك الوقت فى قلب المعارك ، وليس «عمر» ذو الحول والطول هو الذى يسكت عن هذا التصرف الصبياني ، وليس «عمرو» هو الذى يقدم على هذا العمل الأهوج وهو يعرف أن «درّة» عمر كانت تهوى على رأس كل من تسول له نفسه ـ أيا كانت مكانته ـ الخروج على سلطان الدولة ، وهو الذى عزل خالد بن الوليد وهو فى قمة مجده الحربي«!!» .

وإنما الصحيح أن قرار الفتح اتُّخذ فى أثناء المؤتمر العسكرى الذى عقد فى «الجابية» بضواحى دمشق برئاسة القائد الأعلى الخليفة عمر

بن الخطاب، وبحضور كل قادة الجيوش لدراسة الموقف بعد أن تم فتح الشام والبحث فى الخطوة التالية لتأمين هذه الفتوح الضخمة، ودرء أى خطر محتمل من جانب الروم، وكانت الدولة الرومية تسعى إلى تجميع الجيوش لاسترداد ما فقدته، وكان من الطبيعى أن تتجه الأنظار - خلال المؤتمر - إلى مصر حيث الجيش الرومى لا يزال فيها، ويمكنه أن يتقدم منها إلى الشام، كذلك وضع فى الحسبان أن يتحرك الأسطول الرومى من القلزم (السويس) عبر البحر الأحمر لتهديد الحجاز - مهد الإسلام - ولكل هذه الاعتبارات كان قرار فتح مصر وطرد الروم منها إجراءً إستراتيجيا تقتضيه عملية تأمين الفتوح، أضف إلى ذلك إدراك القادة المسلمين للعلاقة الأزلية بين مصر والشام، وأن تأمين إحداهما لا يتم إلا بتأمين الأخرى. وهى النظرية التى درج عليها صناع الإستراتيجية فى كل العصور قديمًا وحديثًا.

لكل هذه الاعتبارات كان القرار بفتح مصر، وتكليف عمرو بن العاص بهذه المهمة نظرًا لخبرته القديمة بشئونها ومسالكها ودروبها منذ كان يحترف التجارة ويتردد على مدنها. ولا تصدق ما نسبه المؤلفون إلى عمرو فى وصف مصر استجابة لطلب الخليفة عمر، فقال له: إنها عنبرة سوداء، وسندسة خضراء. ونيلها عجب، ونساؤها لعب، وهى لمن غلب. . . إلخ. وهى رسالة تفوح منها رائحة التلفيق فى عصور متأخرة. ولم يكن الخليفة عمر فى حاجة إلى السؤال عن مصر - وكأنها مجهولة النسب - وهى التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم، صراحة وضمنًا، عدة مرات. وهى التى شغلت مكانًا عزيزًا فى قلب الرسول صلى الله عليه وسلم، فأوصى بها وبقبطها خيرًا. ومن أجل ذلك رفض الخليفة عمر أن تعامل مصر

معاملة البلدان المفتوحة عنوة، فيُسترق أهلُها وتوزع أرضها على الجند الفاتحين، ورأى أن تعامل معاملة البلدان المفتوحة صلحًا، فيكون أهلها أمانة فى عنق المسلمين، وتبقى الأرض فى أيدى أصحابها. وما كان هذا القرار إلا تقديرًا من عمر لموقف أهل مصر من مسيرة الفتح، حتى إذا نقضت ثلاث قرى عهد الصلح، وانقضت على جند الفتح - نزع عنهم عمرو امتياز الذمة، وبعث بهم إلى المدينة المنورة ليلقوا جزاء من ينقض العهد، ولكن عمر أبى أن يعاملهم بما جنت أيديهم، وصاح صيحته الخالدة: «لا تجعلوا فَيئًا ولا عبيدًا» وأعادهم إلى ديارهم لينعموا بما ينعم به أهل مصر من حرية وكرامة.

من هم أهل مصر

ويثوب عمر إلى ربه عام ٢٤ هـ بطعنة مسمومة من مجوسى حاقد، ويأتى عثمان بن عفان، فيزيح «عمرو» عن إمارة مصر، ويحل محله عبد الله بن أبى السرح، وينقطع ما بين عمرو ومصر من وثاق الحكم والسياسة، ولا ينقطع ما بينه وبين أهلها من روابط الحب والإعزاز، حتى إذا عاد الروم لاحتلال مصر عن طريق البحر وتوغلوا فى الدلتا على حين غفلة من أهلها، ويتحرج مركز العرب الفاتحين، عندئذ يفزع «أهل مصر» إلى الخليفة عثمان طالبين إعادة عمرو إلى مصر، فهو أدرى بشعابها، وهو أقدر على تأديب الروم وإلقائهم فى البحر الذى جاءوا منه. فمن يا ترى «أهل مصر» الذين استنجدوا بعمرو؟

فى ملاحظة ذكية للدكتورة سيدة إسماعيل الكاشف ترجح أن المقصود بأهل مصر، ليس الجند العرب المقيمين فى مصر، وإنما

«القبط» الذين وقفوا وراء راعيهم (عمرو) يشدون أزر العرب ضد الروم، وتصل إلى ما هو أبعد فتقول: بل يمكننا القول بأن البطريرك «بنيامين» هو بطل فتح مصر الثاني، بعد عمرو بن العاص البطل الأول.

لماذا نستهول قولها بأن بنيامين بطل الفتح الثاني(!!) هل كان من الممكن أن يصل الفتح إلى نتيجته النهائية لو لم يجد العون والتأييد من أقباط مصر؟ لقد كان عدد الجند العرب - فى أول الفتح - لا يزيد على أربعة آلاف فارس، وبلغ عددهم بعد الإمدادات أقصاه إلى اثنى عشر ألفًا، وهو رقم متواضع بالقياس إلى الألوف المؤلفة التى قامت بفتح العراق وإيران والشام، ولم يكن لهذه القلة أن تنتصر - بعد عون الله - إلا بالعون الذى وجدوه من أهل مصر. والطليعة المثقفة من الأقباط تعرف ذلك وتعترف به ثقة منها فى سلامة موقف الأجداد. يقول المستشار إدوار غالى الدهبي: «الحقيقة أن الأقباط لم ينسوا الدرس القاسى الذى تلقوه من الإمبراطورية الرومانية المسيحية، وما تعرضوا له من اضطهاد مذهبى بشأن الخلاف حول الطبيعة الواحدة أو الطبيعتين للسيد المسيح، مما جعل البابا بنيامين يهرب فى الصحراء عدة سنين إلى أن أعاده عمرو بن العاص إلى كرسيه. وكان هذا الاضطهاد هو ما دفع الأقباط إلى الترحيب بالعرب ومساعدتهم على فتح مصر، ثم الوقوف فى وجه كل غزو غربى يستند إلى الدين. ولقد أدرك الأقباط - منذ الفتح الإسلامى - أن اختلاف الدين لا ينال من وحدة الدم والمصير بين أبناء مصر جميعًا، ولذلك حارب الأقباط فى صفوف المسلمين ضد الغزاة من الصليبيين والفرنسيين والإنجليز والإسرائيليين وغيرهم».

الاحتلال العربى والاستعمار الإسلامي

ورغم جلاء صحيفة الفتح، يحلو لبعض المتحذلقين من كتبة التاريخ أن يصفوا حركة الفتوح الإسلامية بأنها حلقة فى سلسلة الهجرات العربية التى هربت من جدب الصحراء إلى السهول المزروعة بحثًا عن الغذاء الجيد والنعيم المقيم، ولقد تصاعدت هذه النغمة المسمومة إلى حد القول بأن الفتح الإسلامى كان استعماراً، وأن الوجود العربى كان احتلالا (!!) ونحن نقرأ هذه السموم فيتملكنا الفزع - ليس من بشاعة ما يأفكون - وإنما الخوف على صلابة النسيج القومى من أن يتمزق، وأن يصيبنا ما أصاب غيرنا من جروح الصراعات العرقية (!!).

إذا كان هؤلاء التعساء يضعون الفتح العربى لمصر فى مستوى الاحتلال الرومانى والفارسى والفرنسى والبريطانى - فماذا يكون مصير السبيكة البشرية المصرية التى تشكلت من امتزاج العرب بالمصريين على امتداد أربعة عشر قرنًا (!!) وما هو مصير الثقافة العربية التى صارت ثقافة المصريين جميعًا، مسلمين ومسيحيين، منذ الفتح العربي(!!) هل نطلب من هؤلاء وأولئك أن يحملوا عصاهم على كاهلهم ويرحلوا عن مصر، كما كنا نقول للإنجليز؟ وهؤلاء الذين ينبشون فى دماء المصريين وأصولهم العرقية، ألا يعلمون أن المصريين والعرب تجمعهم وحدة الأصل والدماء منذ عصور سحيقة، ومنذ وقت الهجرات السامية إلى مصر عبر البحر الأحمر وسيناء من قبل عصر التاريخ المكتوب، وأن الهجرة العربية - بعد الإسلام - لم تضفْ جديدًا إلى الدماء العربية التى تجرى فى عروق المصريين منذ الأزل(!!).

لقد تنبه جمال حمدان إلى هذه الحقيقة وهو بصدد البحث عن أصول المصريين الأقدمين، وكيف أن الأصل القاعدى واحد عند العرب والمصريين، وأشار إليها صبحى وحيدة عند حديثه عن تأثير الفتح الإسلامى فى السبيكة المصرية، وكيف أن آثار هذا الفتح تغنينا عما يقتضيه التقصى العلمى من إطالة، «فنحن ما نكاد نبلغ القرن الثامن الميلادى (الثانى الهجري) حتى نجدنا أمام مجتمع عربى بارز الملامح، فأهل هذا المجتمع عرب، وتفكيرهم عربي، وتقاليدهم عربية، وليس فى عروبة من ليس بينهم من أصل عربى أى تكلف أو زيف، فمصر ذاتها فى نظر المؤرخ ابن عبد الحكم، سامية عربية منذ أن كانت الخليقة، والمصريون من أبناء هذا المجتمع الجديد، حتى مَن دخل منهم الإسلام بالأمس، ينتسبون لأصل عربي، والمجتمع المصرى المعاصر مازال مجتمعًا عربى الأفق والروح والتفكير، وهاهم أولاء نوابغ كتابه، وغالبهم ممن اشتركوا فى قيادة الحركة القومية، كالعقاد وهيكل وطه حسين، يكتبون «الصديق أبو بكر» و«عبقرية علي» و«على هامش السيرة» بل إن من يقرأ «قبائل العرب فى مصر» للطفى السيد، وهو من أنبغ من أنجبت مصر، أكثر من سعى إلى خير أبنائها، يلمس فيه نعرة عربية بارزة».

والعلة فى هذا التحول - الذى يصفه صبحى وحيدة بأنه لا يفوقه تحول آخر فى تاريخ البشرية جميعًا - إلى جانب سعة الموجة العربية - هى طبيعة المجتمع الذى أنشأته هذه الموجة، فقد كان كالمجتمع المسيحى الذى تقدمه مجتمعًا دينيا يقوم على العقيدة، ولا يعرف الحدود الإقليمية أو الجنسية.

موقف الأقباط من الفتح

منذ ألف وأربعمائة سنة، كان جيش الفتح الإسلامى بقيادة عمرو ابن العاص يجوس خلال الديار المصرية ليتعقب قوات الاحتلال البيزنطى أنّى وجدها فى القلاع والحصون والمسالح، ودارت بينهما حروب ومعارك ومناوشات، انتهت بالتسليم للعرب، والجلاء عن مصر بعد احتلال دام ستمائة وسبعين عامًا، منذ انتصر الأسطول الرومانى على جيش كليوباترا آخر ملوك البطالمة فى معركة أكتيوم البحرية فى العام الحادى والثلاثين قبل الميلاد، ولا يعنينا فى شأن المعارك التى دارت بين العرب والروم نتائجها العسكرية، ولكن الذى يعنينا فى هذه الملاحم موقف المصريين من الفتح العربي، فعلى أساس هذا الموقف تقرر مصير البلاد، وتحدد مستقبلها، وانطوت صفحة من تاريخها الطويل لتبدأ صفحة جديدة تغير فيها وجه مصر فى الدين واللغة والثقافة، وجاء حادث الفتح ليمثل نقطة فاصلة بين عهدين، وبدء مرحلة تحولت فيها توجهات مصر السياسية والاجتماعية والحضارية عن المراحل التى سبقتها.

ولكى نستبين موقف المصريين من هذا الحادث الجلل، علينا أن نحدد موقعهم على خريطة مصر السكانية عشية الفتح، إذ كان يشاركهم فى سكنى مصر أخلاط من الروم واليونان والسريان واليهود والنوبة، وقد توافدوا على مصر منذ عهود قديمة فاتخذوا منها موطنًا ومُقامًا. وكانت الإسكندرية - عاصمة البلاد - مجمعًا لهذه الجاليات المتمصرة، مما جعل المؤرخ الرومانى «سترابون» يصفها بأنها «خزان عام»، ومما حدا بالفيلسوف السكندرى «فيلون» أن يصف مدينته بأنها «عدة مدن داخل مدينة واحدة». وكان اليهود - بعد الإغريق - يمثلون أهم العناصر الأجنبية فى دولة البطالمة، وكانوا كالعهد بهم يتركزون فى الحى الرابع من المدينة، ويزاولون نشاطهم التقليدى فى التجارة وإقراض الأموال، حتى إذا كان الفتح العربى وجدنا أحد بنود العقد المبرم مع عمرو بن العاص يخص اليهود، ويضمن لهم البقاء فى المدينة ضمن أهلها الذين شملهم اتفاق الصلح.

أما أهم وأخطر الأمم الأجنبية التى واجهها العرب حين مقدمهم، فأولئك هم «الروم» الذين توافدوا على مصر منذ يوليوس قيصر، وتشكلت منهم طبقة الحكام وقامت إلى جانبهم عناصر رومانية هاجرت إلى مصر بقصد التجارة أو شغل المناصب الرئيسية فى جهاز الإدارة، ويساند هؤلاء وأولئك فيالق الجند الذين يمثلون قوة الاحتلال، ومن جميع هذه الأمشاج الرومانية تخلقت طبقة أرستقراطية تستعلى على المصريين بفضل الامتيازات التى كان الرومان يمنحونها لرعاياهم، فكانوا يعيشون - سواء فى الإسكندرية أو المدن أو الريف - داخل مستوطنات مغلقة لا يخالطون المصريين ولا

يصاهرونهم ولا يتحدثون لغتهم ولا يعبدون آلهتهم، حتى إذا جاءت المسيحية اتسعت شقة النفور بين الرومان والمصريين، فعلى حين اعتنقها أغلب المصريين، قاومها أباطرة الرومان الوثنيين بكل عنف. ونهج الرومان المتمصرون نهج ملوكهم، فكانوا أداة القمع والبطش والتنكيل بآباء المسيحية الأوائل، وتشكلت منهم فرق المذابح الهمجية التى انقضت على آباء الكنيسة القبطية بدءًا من مرقص البشير الذى سحلوه فى شوارع الإسكندرية حتى فصلوا رأسه عن جسده، وانتهاء بالأنبا بطرس الأول البطريرك السابع عشر فى سلسلة البطاركة، والذى تطلق عليه الكنيسة القبطية لقب «خاتم الشهداء»، ليس لأنه آخر شهيد مسيحي، وإنما لأنه آخر من استشهد من بطاركة الإسكندرية، ولأن قتله فى عام ٣١١ كان ختامًا لحركات المذابح العامة التى أودت بحياة عشرات الألوف من المسيحيين. فلما دانت الدولة البيزنطية بالمسيحية - منذ عصر قسطنطين - أخذت بها على مذهب يخالف مذهب الكنيسة المصرية، وتحول الخلاف المذهبى إلى ساحة للقمع والاضطهاد، وفشلت المجامع الدينية التى عقدت تحت إشراف الأباطرة، فى تطويع الكنيسة القبطية وإرغامها على قبول المذاهب التى أخذ بها بطارقة روما وبيزنطة. وفى مجمع خلقدونية عام ٤٥١ م كان الانفصال النهائى - حتى يومنا هذا - بين أتباع كنيسة روما، الذين عرفوا بالكاثوليك، وأتباع كنيسة الإسكندرية، ومن سار على نهجهم من اليعاقبة، وقد عرفوا باسم «الأرثوذكس» أى أتباع الطريق الصحيح.

اصطناع كنائس ملكية

وكان هذا العناد الديني المصري، يخفى في طياته احتجاجًا ورفضًا للاحتلال الروماني، وتصدى أباطرة القسطنطينية لكسر شوكة المصريين في الاتجاهين: الديني والوطني، فعمدوا إلى اصطناع كنيسة مصرية دخيلة تعتنق المذهب الملكي البيزنطي، عساها تناوئ الكنيسة القبطية وتسحب من تحت أقدامها سلطة الزعامة الروحية والوطنية، فكان الأقباط يقابلون هذا التدخل الأجنبي بثبات والتفاف حول كنيستهم الوطنية، على حين ظلت الكنيسة الملكية وكرًا للعناصر الرومية الدخيلة، والذين لا تربطهم بأهل البلاد وشيجة من عاطفة الدين أو الوطن، وتجددت المذابح بأبشع مما كانت عليه في عهد الأباطرة الوثنيين، ومع ذلك ظل الأقباط مستمسكين بعقيدتهم وكنيستهم، وكلما اختاروا بطريركًا مصريا عمد الحكام البيزنطيون إلى عزله أو نفيه أو إرغامه على الهرب إلى الصحراء، وتبعث بدلا عنه بطريكا ملكيا ينطق باسمها، ومنذ عصر جستنيان (٥١٨ م) صار البطريرك البيزنطي يجمع بين يديه السلطتين الكهنوتية والسياسية، فصارت جميع الكنائس في أيديهم بعد طرد البطاركة والأساقفة الأقباط، ولم يمكنوهم حتى من دخول الإسكندرية، مستخدمين في ذلك سلطة الجيش، وقوة الروم المستوطنين. وكان آخر هؤلاء البطاركة الملكيين «قيرس» الذي عرفته الوثائق القبطية بهذا الاسم، في حين عرفته المصادر الإسلامية باسم «المقوقس». وقد بعث به هرقل إلى مصر في عام ٦٣١ م بعد خروج الفرس منها، وهو الوجه الذي سيلقاه العرب عند مقدمهم مصر، فيتفاوضون معه، ويعقدون معه عهود الصلح باعتباره المسئول الرسمي عن شئون البلاد.

الروم المدنيون

كان هذا هو الشق الرسمى للوجود البيزنطى عندما دخل العرب مصر، وتعبر عنه طبقة الحكام وجهاز الإدارة وجيش الاحتلال، وكلهم يمثلون ركيزة المواجهة العسكرية المرتقبة مع العرب الفاتحين، وعلى عواتقهم وقعت مسئولية التصدى للغزاة المسلمين، والحيلولة دون وقوع مصر فى أيديهم. ولكنه إلى جانب هؤلاء الروم المحاربين، كان هناك الروم المدنيون الذين استوطنوا مصر، وامتلكوا الضياع، واحترفوا التجارة، وحازوا الثروات، وتناسلوا وتكاثروا فيها، حتى باتوا يشكلون قسمًا من كتلتها البشرية دون أن يتمكنوا من الذوبان أو الانصهار فى المحيط البشرى المصرى بسبب الاستعلاء العرقى من جانب، وبسبب الفجوة الدينية من جانب آخر. وكلاهما تضخم إلى أن أضحى حاجزًا نفسيا حال بينهم وبين الاندماج فى السبيكة المصرية التى سبق لها أن هضمت شعوبًا وأقوامًا وفدوا إليها عبر العصور الفرعونية، ولم يتيسر ذلك للروم الذين أذاقوا المصريين الوبال، وظل هواهم وانتماؤهم إلى الدولة الحاكمة التى أغدقت عليهم الامتيازات والحماية، فعاشوا تحت رايتها عيشة السادة المفضلين على أصحاب البلد. وكان على جيش الفتح العربى أن يلقى الروم فى صورتيهم: العسكرية والمدنية. فأما الجناح العسكرى المحارب فقد تصدى لجيش الفتح بقدر ماسمحت لهم إمكانات العدة والعتاد وظروف التعبئة وفنون القتال، وأما هؤلاء المدنيون فكانوا فى حالة من التمزق النفسى والشتات الفكرى والحيرة التى تصيب الإنسان حين تتكالب عليه المحن فلا يدرى كيف الخلاص: هل يقفون إلى جانب الدولة الرومية وهى تترنح تحت ضربات العرب

وتتوالى عليها الهزائم الماحقة فى الشام، حتى لتوشك أن تلفظ أنفاسها. وبماذا تفيد وقفتهم إذا انحازوا إلى جانبها؟ هل تمد فى عمرها ساعات أو شهورًا قبل أن تصير إلى الفناء (!!) أم يقفون إلى جانب الفاتحين الجدد وهم يعتنقون دينًا غير دينهم، وهل يطمئنون إلى ما سوف يأتى به الغد من مفاجآت(!!) أم يلوذون بالأقباط ويشاركونهم المصير بعد أن يلتمسوا منهم الصفح على ما قدمت أيديهم(!!).

لنترك الأحداث تمضى فى طريقها، ولندع المقادير تجرى فى أعنتها لتحسم كل هذه الإشكالات التى ظهرت على مسرح الحياة المصرية دون ترتيب سابق، ثم نعود إلى سيناء لنرافق جيش الفتح وهو يقطع الصحراء فى رحلته الأسطورية ليسابق الزمن وصولا إلى الهدف الذى جاء من أجله، ونرى ما كان - وما سوف يكون - من أمر هذا الفاتح الذى طرق علينا الباب وليس فى صحبته سوى كوكبة من الفرسان لا يزيدون على أربعة آلاف.

أول الصدام العسكري

فى «الفرما»، أى «بيلوز» كما سماها الفراعنة، أو «بالوظة» كما نسميها الآن - كان أول صدام مع الروم، وكان فيها قلعة ذات أهمية استراتيجية اكتسبتها من طبيعة موقعها على ساحل البحر الأبيض، فهى التى تتولى حراسة بوابة مصر الشرقية، مثلما تقوم الإسكندرية بحراسة الجانب الغربي، فى حين يقع حصن بابليون فى واسطة العقد بين الوجهين، وفى هذه الزوايا الثلاث تركزت الحاميات

البيزنطية الكبرى، وحول قلعة «الفرما» كانت هناك قرية مصرية يعيش فيها القبط، ويستمدون الماء من فرع النيل البيلوزي، ولهم فيها كنائس وأسواق عامرة وحياة ناشطة. وما إن علمت قيادة الحامية البيزنطية بمقدم العرب حتى أغلقوا على أنفسهم أبواب القلعة، وأبحر الرسل إلى القسطنطينية بخبر الغزو، وطلب المدد. وظل «عمرو» ومن معه يحاصرون القلعة ثلاثين يومًا وليلة، فكانت فرصة للمخالطة والحوار بين العرب والقبط، كل منهما يقدم نفسه إلى الآخر؛ ويتعرف إليه ويستطلع نواياه.

ولم تحدثنا مصادر تلك الفترة - إسلامية أو قبطية - عن إساءة بدرت من أحد الطرفين إلى الآخر، بل سمعنا من ابن عبد الحكم - أقدم مؤرخى الفتح - عبارة موجزة يقول فيها: **«والقبط الذين كانوا بالفرما كانوا يومئذ لعمرو أعوانًا»**، ولم يشرح لنا هذا المؤرخ الشحيح طبيعة هذا «العون» الذى قدمه القبط للعرب، وليس من حقنا أن نسرف فى تأويل هذا العون، فهو كاف للدلالة على محتواه، ولو حدث عكس ذلك لما وجد ابن عبد الحكم بأسًا من ذكره. وقد سبق أن تحدث مؤرخو الفتح عن الأهوال التى لاقاها الفاتحون العرب على أيدى عرب العراق والشام، ولم تمنعهم العواطف من ذكر الحقائق ولو كانت مريرة.

ثم تستسلم قلعة الفرما، ويمضى جيش الفتح إلى «بلبيس» عند خط التماس بين الصحراء والأرض الخضراء. لقد مضى فى طريقه بعد أن شعر بأن ظهره مؤمنًا، وخط سيره آمنًا، وبعد أن اطمأن إلى موقف أهل البلاد، وهو موقف «العون» كما قال ابن عبد الحكم، أو

«الحياد» كما يحلو لبعض الكتاب أن يصفوا موقف الأقباط . ليكن حياداً أو حذراً أو ترقباً ، ولكنه فى جميع الأحوال لم يكن موقف المحارب .

ولا يجتاز جيش الفتح عرض الدلتا وصولا إلى الإسكندرية ـ كما فعل الفاتحون الأقدمون ـ تحاشيا للمجارى المائية التى تعوق الجيش ، وإنما اتجه إلى «بابليون» مباشرة ، أقوى الحصون وأعتاها ، حتى إذا اقترب من البناء الشامخ هاله منظر الحصن بأسواره العاتية ، والخندق الذى يحيط به وتغمره مياه النيل ، وأبوابه الحصينة . ونأى عمرو بجيشه أن يخوض معركة انتحارية غير مضمونة النتائج فى حساب الحروب ، فبعث إلى الخليفة «عمر» بطلب المدد ، وإلى أن يأتيه المدد لم يكن أمامه سوى أن ينشر خيام عسكره فى الفضاء المحيط بالحصن من جهتيه الشمالية والشرقية ، حيث توجد بعض البساتين والكنائس . وإذا كان عمرو قد طلب المدد ، فلا بد أن قائد الحامية الرومية «تيودور» قد بعث إلى سيده هرقل يطلب الشيء نفسه . وتمضى سبعة شهور تتواصل خلالها المفاوضات بين المقوقس ورسل عمرو ، وتنتهى المفاوضات إلى صيغة للصلح يتم توقيعها بالأحرف الأولى ، إلى أن يعتمدها الإمبراطور فتصبح سارية المفعول . ولكن هرقل يركب رأسه ، ويرفض الصلح ، ويصبح عمرو فى حل من اقتحام الحصن . ولكن كيف السبيل والأبواب موصدة ومحكمة ، ولا بد من رجل جسور يتطوع للقيام بهذا العمل الجريء ، وكان الزبير بن العوام . نعم ، الرجل الذى دفعت به الأقدار فى هذا الموقف العصيب ، ولا عجب فى ذلك ، فهو حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو واحد من النفر القليل الذين آمنوا برسالة الإسلام وهى تتحسس

طريقها بين طغاة الشرك فى مكة، وهو زوج أسماء بنت الصديق أبى بكر التى غامرت بحياتها وذهبت تحمل الطعام فى نطاقيها إلى الصاحبين وهما فى الغار يتخفيان من ملاحقة قريش، وهو فى النهاية أحد العشرة المبشرين بالجنة. وتسلق الزبير السلم صاعداً إلى أعلا السور، ومن ورائه جموع المقاتلين يتسابقون على الصعود، حتى خشى عمرو أن ينكسر بهم، ولكن لم ينكسر السلم، حتى إذا بلغ الزبير قمة السور هتف من أعماق فؤاده «الله أكبر» وردد المسلمون من ورائه صيحة التكبير فزلزلت جدران الحصن وارتجت أبراجه، ودب الذعر فى نفوس الروم وهم يرون باب الحصن ينفتح ويتدفق منه جند المسلمين كالسيل العارم، وألقى الروم بما فى أيديهم من سلاح وانطلقوا يطلبون النجاة بأرواحهم، واستسلم الحصن للمسلمين. وللمرة الثانية يفاجئنا ابن عبد الحكم بقوله عن هذه المعركة الفاصلة: **«وصارت له القبط أعوانًا»** دون أن يفسر طبيعة هذه المعونة، أما فى المرة الثالثة فإن لسانه ينطلق فيقول: **«لما خرج جيش عمرو يضرب فى الريف نحو الإسكندرية، خرج معه جماعة من رؤساء القبط، وقد أصلحوا له الطرق، وأقاموا له الجسور والأسواق، وصارت هم القبط أعوانًا على ما أرادوا من قتال الروم»** ثم تطالعنا العبارة نفسها ـ للمرة الرابعة ـ فى أثناء حصار الإسكندرية: **«فنزل المسلمون ومعهم رؤساء القبط يمدونهم بما احتاجوا إليه من الأطعمة والعلوفة»**.

عبارات صريحة، وكلمات واضحة لا تحتاج إلى تأويل أو تحريف فى شرح موقف الأقباط من الفتح. ولقد أوضح ابن عبد الحكم فى شهادتيه الأولى والثانية أن الأقباط قدموا العون للعرب من غير تهويل

أو تفصيل لمظاهر العون، ولكنه فى الشهادة الثالثة يذكر التفاصيل التى تمثلت فى إصلاح الطرق وإقامة الجسور والأسواق، حتى إذا صاحبوا العرب فى حصار الإسكندرية قدموا الطعام للجند، والأعلاف للخيل. وقد انكشفت أمامهم النتيجة النهائية، وهى اندحار الروم وغلبة المسلمين، فما عليهم من ملام إذا هم ساهموا فى القضاء على الدولة التى لم يجدوا منها سوى القهر والإذلال، والترحيب بالدولة التى لم يجدوا منها إلا كل مما يطمئن على احترام عقيدتهم، وهو قصارى ما يعنى الأقباط فى كفاحهم الدءوب عن عقيدتهم ودينهم ومذهبهم.

أراجيف بتلر

إلا أن بعضًا من كتاب الغرب المحدثين ـ وآخرهم ألفرد بتلر ـ كبر عليهم أن يقال بأن الأقباط عاونوا المسلمين ورحبوا بهم، فأنكروا هذه الحقيقة وراحوا يتلمسون الشواهد، ويتصيدون الأخبار التى تؤيد مسعاهم. وقد تصدى عدد من كبار الكتاب لتفنيد مزاعم بتلر، اخترت منها ما كتبه الدكتور شكرى فيصل ـ وهو مؤرخ عراقى ـ فى كتابه «حركة الفتح الإسلامى فى القرن الأول» رصد فيه وقائع الفتح منذ خروج الكتائب الأولى نحو العراق والشام، وما كان من مقاومة عنيفة من جانب عرب الضاحية فى العراق وعرب الشمال فى الشام، واستخلص هذه الحقائق مما جاء فى «الطبري» وغيره من المؤرخين الأوائل، وقد تكفل الدكتور فيصل بتفنيد ما يتحدث به المؤرخون المحدثون عن «ترحيب عرب العراق والشام بجيوش الفتح، بعد أن تبين له من خلال البحث والتقصى أن أسطورة

الترحيب لم تكن إلا استنتاجًا خاطئًا عن صلات القربى والدم بين عرب الجزيرة ـ الفاتحين ـ وعرب الشام والعراق، دفعت إليه أهواء وأغراض أرادت أن تعرى الحركة الإسلامية من وقدتها الذاتية.
ولكنا في مصر ـ يقول الدكتور فيصل ـ أمام شيء آخر لا يتحدث عنه المتأخرون من المؤرخين، دائمًا يتحدث به المتقدمون من المؤرخين الإسلاميين أنفسهم، فيذكرون في مواقف كثيرة أن الأقباط كانوا عونًا للمسلمين في فتوحهم. وقد يشيدون بهذه المعاونة في أكثر الأحيان، وقد يسكتون عنها في أحيان أخرى. ولكن الفكرة العامة التي يخرج بها المتتبع: أن ميول القبط لم تكن على الأقل ميولا معادية للحركة الإسلامية، وأنه كان بين موقف الأقباط وموقف الروم ـ من الفتح ـ هوة هائلة لا سبيل إلى إنكارها.

وحين يتصدى الدكتور فيصل لأقوال «بتلر» التي أجهد فيها نفسه وعلمه ـ يقول إن بتلر ينكر ترحيب المصريين بالفتح، ويزعزعه ويكفكف أطرافه ويقيم مؤلفه النفيس «فتح مصر» على فكرتين أساسيتين:

أولاهما: أن الإسلام لم يدخل مصر من غير حرب.

والثانية: أن القبط لم يرحبوا بالفتح العربي رغم أنه جاءهم في أعقاب اضطهاد ديني شنيع تولى «قيرس» أمره، كما لم يرحبوا بالفتح الفارسي من قبل. ويمضي على ذلك في كل مراحل الكتاب حتى ليوشك القارئ أن يؤمن بأن هذا ـ وحده ـ كان الغرض الأصيل من إقامة هذا الكتاب، وحسبنا أنه لم يستطع إنكار ما كان من مساعدة القبط، ولكنه يفسر هذه المساعدة بأنها «فردية» مرة، وأنها «اضطرارية» مرة أخرى، وليست مساعدة الراغب المختار، بل عمل المجبر المضطر، وأنها «ضئيلة» لا تعدو بعض الأمور، وأنها من بعض

مَن أسلم من القبط . ثم يفسرها بأنها محدودة ومعينة لغرض خاص ، ولم تكن عامة . وحين يشعر بأن تفسيره لا ينهض بالحقيقة ولا يظهرها ، يلجأ إلى تحديد هذه المساعدة زمنيا ، فيجعلها بعد فتح الحصن ، ليجعل من هذه المساعدة أمراً اضطرت إليه الظروف ، وألجأت إليه الحاجة ، حين أضحى وليس فى وسع القبط إلا أن يشاركوا المسلمين الحياة على هذه الأرض التى يملكونها . وفى سبيل ذلك اضطر بتلر إلى أن ينفى أو يؤول كثرة كثيرة من روايات المؤرخين المسلمين والأقباط على السواء ، ومنها قول النقيوسى الذى عاصر الفتح : إن الأقباط لم يساعدوا المسلمين إلا بعد أن استولوا على الفيوم وإقليمها . وقد فسر هذه الغزوة بأنها كانت فى أشهر الحصار الأولى ، ولكنه عقب على مقالة النقيوسى بقوله : ولا ندرى فى أى وقت كان هذا على وجه التحقيق ، ولكن من الجلى أنه لم يكن إلا بعد فتح حصن بابليون .

هيكل على منوال بتلر

والمؤسف أن بعض كبار الكتاب المصريين انخدعوا بمنهج بتلر فى الدراسات التاريخية التى تتظاهر بالأمانة والنزاهة العلمية ، ومنهم الدكتور محمد حسين هيكل باشا - فى كتابه الفاروق عمر - وقد نسج على منوال بتلر فى إنكار مساعدة القبط للمسلمين الفاتحين ، بل وصل إلى ما هو أدهى ، فأنكر الرسالة التى أصدرها البطريرك بنيامين من مكمنه فى الصحراء ، ويطالب فيها الأقباط بتقديم العون إلى العرب ، ويبشر أبناءه القبط بسقوط دولة الروم . وفى رأى هيكل أن المؤرخين العرب انتحلوا هذه الرسالة لأنهم لم يجدوا تفسيراً لانتصار عمرو على الروم إلا أن يكون قد لقى العون من أهل مصر (!!)

فأثبتوا القصة وصدقوها استناداً على ما كان من كراهية القبط لحكم الروم(!!) ولم يشرح لنا هيكل أسباب عجز المؤرخين عن تفسير غلبة المسلمين، الأمر الذى دفعهم - فى رأيه - إلى اختلاق فكرة الدعم القبطى للعرب. ولقد كان من الميسور أن نصف اجتهاد هيكل بأنه تهمة لا ننفيها، لو أن هيكل كان معترفًا بهذا العون الذى قدمه القبط للعرب، لأن هيكل سرعان ما ناقض نفسه، وسار على درب بتلر فى إنكار هذا العون، فيقول فى لهجة الواثق: «لا شك أن القبط لم يعاونوا الروم فى قتال العرب إلا بالقدر الذى يضطرهم إليه خضوعهم كارهين لسلطان قيصر وعماله، ولكن لا شك كذلك فى أنهم لم يعاونوا العرب إلا أن تكون معاونات فردية يتبرع بها خفية من بلغت ثورة نفوسهم بالروم وحكمهم مبلغًا جعلهم يقامرون بحريتهم وبحياتهم، ليدلوا العرب على عورات الروم، وليكشفوا لهم عن أسرارهم. أما فيما وراء ذلك، فقد وقف شعب مصر من الفريقين المتحاربين موقف المتفرج شديد التطلع» وفى رأيه أن هذا هو الموقف الطبيعى لكل شعب فى مثل حاله يومئذ(!!).

وفى لهجة الجزم والتأكيد يقول الدكتور هيكل: إن المصريين لم يعاونوا العرب فى الفرما، ويتساءل فى صيغة الدهشة: كيف استطاع عمرو بقوته الصغيرة أن يحاصر مدينة منيعة قوية الأسوار والحصون فيقهر جندها ويقتحم أسوارها ويفتض حصونها؟؟ وعنده أن حامية المدينة كانت تتوقع - بعد أن طال حصارها - أن تبعث الحكومة المركزية إليها مددا، فلما طال الانتظار دون أن تبدو بشائر المدد، رأى قائد المدينة أن يقامر بالخروج مع رجاله إلى ما وراء الأسوار لملاقاة العدو وجها لوجه، ولكنه ما لبث أن ألفى المسلمين ليوثا ضارية فارتد إلى الحصن، وعندئذ تعقبهم المسلمون وأمعنوا فيهم القتل، ولم يبق

للروم إلا التسليم. ولقد كان من الممكن قبول هذا التفسير العسكرى الذى انتهى باستسلام الحامية الرومية للعرب، إلا أن هيكل باشا لا يلبث أن ينسب إلى عمرو بن العاص أنه هدم المدينة وخرب كل كنيسة أو دير يمكن التحصن به، ثم اتخذها معقلا يؤمن الطريق إلى فلسطين وبلاد العرب(!!) وهى رواية غريبة وشاذة لم نسمع بها فيما ورد على ألسنة المؤرخين، إذ لم يُعهد عن جيوش المسلمين اتباع سياسة إحراق الأرض أو تخريب المدن ـ فضلا عن الكنائس والأديرة ـ ولكنه التسرع فى تبنى آراء كتاب الغرب الملفوفه بدثار البحث العلمى والنزاهة التاريخية(!!).

أوْهَى من بيت العنكبوت

أما مقولة بتلر التى ينفى فيها أن الإسلام دخل مصر من غير حرب، فهى أوْهَى من بيت العنكبوت، ولم يقل بها أحد من المؤرخين قديمًا وحديثًا، وتفندها وقائع المعارك التى دارت على أرض مصر حتى سقوط الإسكندرية. ولكن السؤال الفاصل فى هذه الإشكالية هو: كانت الحرب ضد مَن؟ هل كانت حربًا على الروم الدخلاء الذين كانوا يحتلون مصر منذ قرون؟ أم كانت حربًا ضد المصريين؟ وعندما دخل العرب: هل سلبوا الحكم من المصريين؟ وهل أطاحوا بحكومة وطنية كانت تهيمن على شئون البلاد؟ أم أطاحوا بالحكم البيزنطى الاستعماري؟ وعلى الذين يرددون هذه الأقاويل الخبيثة أن يبحثوا فى سجلات التاريخ عن جنسية الحكومة التى كانت تحكم مصر عندما دخلها العرب.

يجيب عن ذلك الدكتور مراد كامل قائلا: لم نسمع طوال الحكم البيزنطى أن أحدًا من أبناء الشعب النابهين ظهر لينقذ البلاد من براثن

الاستعمار الأجنبي، أو أن يحد من نشاطهم الهدام، أو يطالب بأحقيته فى الحكم. لقد قضى الرومان ـ ومن بعدهم الروم ـ على مقومات الحكم الوطنى المصري، وتدخلوا فى أخص خصائص الحياة السياسية والدينية، حتى بات المصريون غرباء فى وطنهم. وكانت هذه الأحوال كلها باعثًا للمصريين على الترحيب بالعرب، يحدوهم الأمل فى أن يتمتعوا بحياة فيها رخاء وطمأنينة. ولم يعد بطريرك الكنيسة القبطية ـ بنيامين ـ إلا بعد نداء الأمان الذى أعلنه أمير الفتح عمرو بن العاص الذى يقول عنه حنا النقيوسي: لم يضع يده على شيء من الكنائس، ولم يرتكب شيئًا من السلب والنهب، بل إنه حفظ الكنائس وحماها إلى آخر حياته.

فهل من الأمانة التاريخية طمس الدور التاريخى الذى قام به أجدادنا الأقباط فى مساندة الفتح الإسلامي، وهم الذين سالت دماؤهم أنهاراً دفاعًا عن العقيدة والدين؟؟

وهل مما يتفق مع الكرامة الوطنية أن نتهمهم بأنهم وقفوا موقف المتفرجين من الفتح العربي، وأنهم لم يقاوموه مثلما لم يقاوموا الغزو الفارسي؟

وهل من العدالة المجردة عن الهوى أن نضع الفتح الإسلامى فى كفة متساوية مع الاحتلال البيزنطى أو الفارسي(!!).

إن علينا أن نبحث عن سر تأييد الأقباط للفتح الإسلامي، وأن نستقصى مبررات هذا التأييد من خلال الظروف النفسية التى كان عليها الأقباط فى زمن الفتح.

ميلاد مصر الجديدة

هناك إجماع بين مؤرخى الفتح على أن الأقباط لم يشاركوا الروم تصديهم لجيش عمرو، ومن المؤرخين من يضيف أن الأقباط رحبوا بالعرب الفاتحين، وأرشدوهم إلى الطرق والمسالك التى تؤمنهم وتعزز مواقعهم، ومن الأقباط من زاد فى كرم الضيافة فقدم لهم الزاد ولخيولهم الأعلاف. وباستثناء ثلاث قرى ثارت فى وجه المسلمين، لا نسمع من أنباء الفتح إلا ما يدل على الوئام والتفاهم واستقرار العلاقة بين الأقباط والمسلمين. فلماذا اتخذ المصريون هذا الموقف؟

التفسير الشائع أن الأقباط رحبوا بالعرب نكاية فى الروم الذين أذاقوهم العذاب، وتدخلوا فى معتقداتهم الدينية، وفرضوا عليهم بالإكراه أن يعتنقوا ما لا يؤمنون به من «هرطقات» وبدع شاعت فى الكنائس الغربية، بما يتناقض مع رؤية الكنيسة المصرية الأرثوذكسية. وكانت آخر حلقات الاضطهاد ما جرى على يد «قيرس» وهو البطريرك الحكومى الذى بعثت به بيزنطا ليناوئ الكنيسة المصرية

سلطانها وسيادتها على شعبها، مما اضطر البطريرك المصرى «بنيامين» إلى الهروب إلى الصعيد بحثًا عن الأمان فى أحضان الرهبان، الأمر الذى جعل المصريين ينتظرون الخلاص من هذا الظلم، ويترقبون زوال هذه الدولة العاتية، فلما لاحت تباشير الفتح العربى رحبوا به(!!).

ولو أخذنا هذا التفسير السائد على ظاهره، لأعطانا انطباعًا بأن المصريين - وهم متدينون بطبيعتهم - وضعوا الاعتبار الدينى فوق الاعتبار الوطني، وجعلوا التحرر الدينى نصب أعينهم حتى لو كان الثمن انتقال مصر من حوزة الروم إلى حوزة العرب(!!) وأحسب أن هذا التفسير ينطوى على بعض الظلم والافتئات على أجدادنا الأقباط، وخاصة إذا تذكرنا أن الكنيسة المصرية كانت - منذ بواكير المسيحية - الحصن الذى تجسدت فيه الروح الوطنية ضد الاحتلال الرومانى ثم البيزنطي، وانبثق منها الإحساس بالكرامة المصرية والإباء الوطني، ورفض التبعية للسيطرة الأجنبية فى أشكالها الدينية والوطنية، وإذ لم يكن لمصر جيش وطنى يتحمل مسئولية الكفاح - لأن حكام مصر الأجانب حرصوا على إبعاد المصريين عن التجنيد - فلم يكن للمصريين سوى كنيستهم يلوذون بها للحفاظ على وجودهم الدينى واستقلالهم الوطني، ولما اكتشف الروم الدور المزدوج للكنيسة المصرية أطلقوا عليها سهامهم وعملوا على تفريغها من هذا الدور عن طريق تعيين بطريرك عميل جمع فى يده السلطتين الزمنية والدينية، بينما ظلت الكنيسة المصرية أمينة لعقيدتها، مخلصة للأرض التى نشأت عليها، وفية لشعبها. ومن هنا لا يتصور أن تكون الكنيسة المصرية تهاونت فى مسئوليتها الوطنية حين رحبت بالعرب

الفاتحين، ولا يجوز تعليل هذا الترحيب بأنه كان تشفيا فى الروم المدحورين، وإنما علينا أن نبحث عن دوافع هذا الترحيب فى الظروف النفسية والروحية التى جعلت الأقباط ينظرون إلى الجيش الإسلامى بعيون تختلف عن نظرتهم إلى جيوش قمبيز الفارسى والإسكندر المقدونى والقيصر الرومانى وطابورالأباطرة الذين توافدوا على مصر طوال عهود الاضطهاد، فلم يكن جيش عمرو بديلا عن جيش الروم، وإلا كنا كمن يستبدل احتلال باحتلال، وفى هذا إساءة إلى تاريخ أجدادنا الأقباط، وإنما الصحيح أن الأقباط رأوا فى الجيش الفاتح نقطة البدء فى مرحلة جديدة من تاريخ مصر تحت ظل الدولة الجديدة التى بزغت من جزيرة العرب، وانتشرت أعلامها فى أنحاء العالم القديم.

رسالة النبى إلى المقوقس

ولابد أن تكون هناك حوادث مسبقة تركت آثارها فى الوجدان المصرى وجعلت المصريين يحملون فى نفوسهم قدراً من المودة والتعاطف، يعادل القدر الذى حمله الإسلام والمسلمون للمسيحيين عموماً، وأقباط مصر خاصة. فقبل خمسة عشر عاماً من الفتح تلقى «المقوقس» عظيم القبط رسالة من النبى صلى الله عليه وسلم يدعوه فيها وقومه إلى الإسلام، ولم يفعل المقوقس فعل كسرى الفرس الذى مزق رسالة النبى واستشاط غضباً وبلغ به الحمق أن بعث إلى عامله على اليمن يأمره أن يذهب من فوره إلى حيث يقيم النبى العربي، ويأتيه به مخفوراً، فما هى إلا أيام حتى لقى هذا المغرور حتفه على يد

ابنه، وما هى إلا بضع سنين حتى كان ملك الأكاسرة كله يتصدع وينهار تحت معاول جند سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم(!!).

لم يفعل «المقوقس» ذلك وإنما تقبل رسالة النبى بما تستحقه من تكريم، ورد عليه ردا جميلا، وبعث إليه بهدية كان من بينها قدْر من عسل «بنها»، وبغلة، وفوق ذلك فتاتان شقيقتان من كرائم العَائلات المصرية، وشاء قدر إحداهما - وهى السيدة مارية القبطية - أن تكون حليلة النبى صلى الله عليه وسلم، وأن ترزق منه بولدهما إبراهيم الذى اختاره الله إليه وهو فى سن الطفولة، وبقيت ذكراه الطاهرة لتذكرنا دائمًا هذه الرابطة التى جعلت من الأقباط أخوالا لابن سيد المرسلين، مثلما أنجبت «هاجر» المصرية لأبى الأنبياء «إبراهيم» ولده إسماعيل فصار المصريون من يومها أخوالا للعرب أجمعين.

ولا بد أن يكون المصريون قد تسامعوا بنبأ الوصاية التى اختص بها الرسول صلى الله عليه وسلم أقباط مصر، ودعوته أصحابه بأن يتخذوا منهم جندًا كثيفًا لأنهم خير أجناد الأرض، ولأنهم وأزواجهم فى رباط إلى يوم القيامة.

ولا بد أن يكون المصريون قد علموا بمسلك الفاتحين العرب فى العراق والشام، وكيف ساروا مع أهل البلاد سيرة العدل والإنصاف والمساواة والإحسان، وكيف أطلقوا لهم الحرية الدينية، وكيف فرضوا الحماية لكنائسهم وصلبانهم وأديرتهم وبيعهم، فلا تمس ولا يشاركهم فيها أحد. ولكى ندرك قيمة الحرية الدينية يجب أن نستحضر فى أذهاننا الحالة الدينية فى مصر عشية الفتح، وكيف عانى الأقباط من الاضطهاد والظلم فوق ما يحتمل البشر. وفى هذه

اللحظة الفاصلة من تاريخ مصر - جاء العرب، فلم يدخلوها دخول الغزاة المستعمرين أو الجبابرة المتسلطين، أو البرابرة المتوحشين، ولم يفعلوا ما فعلته جحافل الجرمان والقوط والفرنجة عندما انقضوا كسيل العرم على مراكز الحضارة الرومانية، وأباحوا المدن المفتوحة للوحوش الظامئة تهتك الأعراض، وتنهب الأموال، وتدمر كل ما هو جميل. ولم يفعل المسلمون ما سوف يفعله المغول والصليبيون الفرنجة فى ديار الشرق، ولا ما سيفعله نصارى الإسبان فى مسلمى الأندلس(!!).

كان العرب أصحاب رسالة ودين وآداب وتقاليد، زرعها القرآن الكريم فى نفوسهم، فلا يبغون عنها حولا، وكان لهم من وصايا الخلفاء والقادة حدود لا يتعدونها: لا يحرقون شجراً، ولا ينهبون مالاً، ولا يثلمون عرضًا، ولا يقتلون أعزل، ولا يتعرضون لمن حبسوا أنفسهم فى الصوامع، وأن يكونوا صورة إيجابية للشرف والتجرد والنزاهة والرأفة، وأن يكونوا مثلا أعلى يراه أصحاب البلدان المفتوحة فيقولوا: هؤلاء دعاة، وليسوا غزاة(!!).

كنائس جديدة

وأما المظهر الثانى فيبدو واضحًا فى حركة بناء الكنائس والأديرة: بنيت كنائس جديدة، وأصلحت كنائس متهدمة، هدمتها اضطهادات المقوقس، ووجد الأقباط فرصة طيبة يمارسون فيها إصلاح ما أفسده الزمان من أمور. ويروى لنا ابن عبد الحكم فى تاريخه «فتوح مصر وأخبارها» أن أول كنيسة بنيت فى فسطاط مصر كانت فى ولاية «مسلمة بن مخلد» (٤٧ - ٦١ هـ) ويحدثنا سعيد بن البطريق فى

تاريخه «المجموع على التحقيق والتصديق» أن الوالى عبد العزيز بن مروان كان له فراشون نصارى ملكية، فاستأذنوه فى بناء كنيسة لهم، فأذن لهم، فبنوا كنيسة «مار جرجس» بحلوان. ، وهى كنيسة صغيرة، وكانت تسمى كنيسة الفراشين. وكان له كاتب يعقوبى يقال له «إتناس» فاستأذنه فى أن يبنى كنيسة فى قصر الشمع (حصن بابليون) فأذن له بذلك، فبنى كنيسة «مار جرجس» وكنيسة «أبو قير» التى بداخل القصر. ويذكر الكندى فى «الولاة والقضاة» أن الوليد بن رفاعة (١٠٩ ـ ١١٧ هـ) أذن للنصارى ببناء كنيسة بالحمراء تعرف بأبى مينا. وقد سلسلت الدكتورة «سيدة الكاشف» فى كتابها «مصر فى فجر الإسلام» حوادث بناء الكنائس، ونقل «بتلر» فى كتابه «فتح العرب لمصر» جملة من النصوص عن «ساويرس بن المقفع» تصور ما كان يسود الحياة الدينية من حرية وتسامح، هذا إلى ما كان من حماية الكنائس وحفظها، وحسبنا فى ذلك أن «حنا النقيوسي» مؤرخ الفتح الذى يقول عنه «بتلر» إنه لا يتورع أن يصف الإسلام بأشنع الأوصاف، ويتهم من دخلوا فيه بأشنع التهم، ويذكر عن عمرو «أنه لم يضع يده على شيء من تلك الكنائس، ولم يرتكب شيئًا من النهب والسلب، بل إنه حفظ الكنائس وحماها إلى آخر حياته...».

مصر فتحت صلحاً

هذه الحرية الدينية كانت تواكبها حركة تحرير كبرى للشعوب التى عانت من قهر الفرس والروم، وكانت مصر فى طليعة الأمم التى تحررت، وعندما أثيرت قضية الصيغة التى فتحت بها مصر، أصر الخليفة عمر على أنها فتحت «صلحًا» وليس «عنوة»، وشتان بين

الحالتين؛ لأن الأرض المفتوحة «صلحًا» لا تقسم ولا توزع أراضيها على الجند الفاتحين، شأن الأرض التى فتحت بالقوة. وكان الزبير بن العوام بعد أن اقتحم حصن بابليون يرى أن تقسم أرض مصر، ولكن قائد الفتح «عمرو» الحصيف أبَىَ ذلك عليه، وسبقه فعقد الصلح للذين جاءوا يعاقدونه عليه، وحاول الذين اقتحموا الإسكندرية كذلك أن يقتسموها، واختلفوا عليه فى قسمتها، وكانوا كثرة، فقال عمرو: لا أقدر حتى أكتب إلى أمير المؤمنين، فرد عليه الخليفة عمر: لا تقسمها، وذرهم يكون خراجهم (ضريبة الأرض) فيئًا للمسلمين وقوة لهم على جهاد عدوهم.

يقول الدكتور شكرى فيصل: والواقع أن صيحة عمر «لا تجعلوا فيئا ولا عبيدا» وإلحاحه عليها، هى التى كانت دستور المسلمين وسياستهم، وهى التى كانت تتردد أصداؤها فى أذن كل سكان هذه البلاد المفتوحة. وأخيراً فإن كل عقود الصلح التى كتبها المسلمون فى مصر كانت تنص على أن للمصريين «أرضهم وأموالهم لا يتعرض لهم بشيء منها»، و«أنهم لا يخرجون من ديارهم ولا أراضيهم»، وأن «لهم الأمانة على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وبحرهم، لا يدخل عليهم شيء من ذلك، ولا ينتقص».

بذرة الإخاء

إن العلاقة الحميمة بين المسلمين والأقباط بدأت منذ اليوم الأول للفتح الإسلامي، ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا إنه كان لقاء أخوة وأصهار بعد اغتراب طويل، ومن المؤرخين الأقباط من يرى أن بذرة الإخاء وضعت منذ اللقاء التاريخى بين الفاتح المسلم عمرو بن العاص وزعيم

الكنيسة المصرية «بنيامين». ويرى الدكتور وليم سليمان قلادة إن «روح» هذا اللقاء تعد نقطة الانطلاق فى مسار العلاقات بين أتباع الديانتين، والقاعدة المرجعية التى يُصحح بالرجوع إليها هذا المسار كلما انحرف عن بداية توجهه. وفى حقيقة الأمر فإن هذا اللقاء يمثل محور الاستقرار الذى يُصحح حوله الحياة المصرية فى حالتها الطبيعية. ولقد سجل المؤرخون عن هذا اللقاء الأول بين الإسلام والمسيحية فى مصر أنه كان لقاء المودة والمحبة، ولم يكن سحقًا ولا قهراً. وهو يعطى للأجيال المتعاقبة درسًا بالغ الأهمية، ينبغى أن يكون نبراسًا ينير لهم سبل التعامل بينهم، فلم يكن أساس هذا اللقاء اعتناق أحد الطرفين لعقيدة الآخر، بل على العكس من ذلك، كان أساس اللقاء هو احترام كل طرف لعقيدة الآخر، بحيث تتعايش العقيدتان معًا لا تستبعد إحداهما الأخرى.

ويستطرد المستشار وليم سليمان قلادة فى سرد تطور هذا التعايش من خلال مراحل التاريخ، فيقول: نحن لن نستطيع أن نفهم منطق هذا التعايش وأبعاده إلا إذا نظرنا إليه من خلال التاريخ، نربطه بما سبق أن أنجزه الشعب قبله من نقلات فكرية، وبالآثار التى ولدها هذا التعايش بعد ذلك، ومسار تطوره إلى أن أفرز أروع آثاره بعد قرون طويلة، تحقق فيها المصريون - من واقع خبرتهم - أن المواجهة المجدية فى المجتمع لا يسوغ بأى حال أن تكون بين عقائد دينية مطلقة، بل يجب أن تقف جميع العقائد مترابطة متعاونة تواجه كلها معًا واقع المجتمع ومشاكله الوطنية والاجتماعية والفكرية والسياسية والاقتصادية.

ما أحرانا ونحن نواجه الهجمات الشرسة التى تهب علينا من

الغرب ، أن نستدعى هذا التراث المجيد من أعماق الذاكرة، ليكون دستوراً للجامعة المصرية وهى تشق طريقها نحو التقدم فى ثقة وثبات ، مثلما كان دستوراً لأجدادنا العظام وهم يضعون لبنات هذا الصرح العظيم. ونستطيع أن نواجه ما يصادفنا من هموم ومشاكل بقدر ما تحمل نفوسنا من إخلاص وصدق ومحبة وإحساس عميق بوحدة المصير.

ميلاد مصر الجديدة

كان اللقاء المبشر بين قائد الفتح عمرو بن العاص والبطريرك بنيامين إيذانًا بميلاد مصر الجديدة التى خرجت من شرنقة العسف والاضطهاد والعبودية ، إلى رحابة الحياة الحرة الكريمة ، وإلى آفاق عصر جديد يحترم عقيدة الإنسان، فيعتنق ما يرى أنه حقا. ويحترم الإنسان من حيث هو كائن حر بالفطرة ، لا يسجد لصنم، ولا يركع لحاكم، ولا يحنى رأسه إلا لخالقه. وعندما ارتفع نداء التوحيد فى مصر ، كان على أجراس الكنائس أن تدق وتتجاوب أصداؤها فى كل أنحاء البلاد بعد طول صمت وكان على زعيم الكنيسة المصرية أن يعود إلى موقعه العتيد ، ولتصدر الكتب من قائد الفتح إلى كل أعمال مصر : «الموضع الذى فيه بنيامين رئيس النصارى له الهدى والأمان والسلام من الله ، فيحضر آمنًا مطمئنًا ويدير حال بيعته وسياسة طائفته» ويحضر البطريرك «بنيامين» ، ويستقبله الفاتح المسلم هاشا باشا ، ويدنيه من مجلسه ، ويناديه «أبو الميامين» على سبيل التدليل والمحبة. وبينما كانت شمس الروم تغرب فى بحر الروم، كانت شمس الإسلام تشرق على مصر وتؤذن بتشكيل حياة جديدة لمجتمع

جديد تتفتح فيه قيم ومثل ومبادئ ونظم تنحو بتاريخ مصر كله إلى اتجاه مغاير لما كانت عليه من قبل، وبدأ كل من يعيش على أرض مصر يتنفس هواء نقيا، ويشعر بقيمة الحرية والكرامة والمعاملة الإنسانية التى شملت الأقباط كما شملت الروم الذين فضلوا البقاء فى مصر على صحبة الجيش الغارب، وليتمتعوا بحرية دينية قد لا يجدونها فى بلادهم الغارقة فى مستنقع الصراعات المذهبية، فعلى حين لم يأخذ البيزنطيون رعاياهم بالسماحة والرفق أتاح المسلمون للأقباط والروم على السواء أن يدينوا بالذى شاءوا، وأن يتعبدوا على ما يحبون أن يتعبدوا، وأن يفسروا طبيعة السيد المسيح وإرادته ومشيئته على النحو الذى يطمئنون إليه. ولم تكن هذه الحرية لأصحاب المذهب الأرثوذكسى «المصري» وحدهم، ولكنها كانت كذلك لأصحاب المذهب الملكاني، فلم يكن من شأن المسلمين أن يناصروا فريقًا على فريق، أو مذهبًا على مذهب، وإن كان يسعدهم لو دان هؤلاء جميعًا بالإسلام الذى حملوه إليهم.

عقدة العقد

كانت الحرية الدينية هى عقدة العقد فى علاقة الأقباط بالدولة البيزنطية، فلما جاء الإسلام تمثلت الحرية الدينية فى مظهرين يعرضهما الدكتور شكرى فيصل فى كتابه «المجتمعات الإسلامية فى القرن الأول» فأما المظهر الأول فيتمثل فى دعوة البطريرك بنيامين لاستعادة موقعه الذى غاب عنه ثلاثة عشر عامًا، وإطلاق يده فى الإشراف على أمور القبط، وعودة الكثيرين من الذين فتنوا عن مذهبهم أو الذين هربوا من ديارهم.

تحرير وتعمير... وليس استعمارًا

خرجت مصر من حروب التحرير والخلاص من الاحتلال البيزنطى مثخنة بالجراح، منهكة القلب، بعد اضطهاد وعذاب دام طوال العصر المسيحي. وكان قدوم الإسلام مع جيش عمرو بن العاص هو طوق النجاة الذى أنقذ المصريين من هلاك مدبر وشقاء مقيم، ولذا لم يتخلف المصريون عن مناصرة المسلمين وشد أزرهم خلال حربهم مع الروم.

وبجلاء الروم، انطوت تلك الصفحة الكالحة من تاريخ مصر، وبدأت صفحة جديدة من حياتها المعمرة شارك فى صنعها المصريون والعرب؛ المصريون بما لديهم من تراث مجيد، وخبرات عميقة، وحضارة تليدة، والعرب بما يحملون فى أيديهم من مشاعل العدل والمساواة والحرية. ومن هذا المزيج الكيميائى تشكل المجتمع الجديد، واستعادت مصر عافيتها، واستأنفت رسالتها الحضارية، فإذا بها قاعدة للفتوحات الإسلامية فى الشمال الإفريقى حتى الأندلس،

وعلى سواعد أبنائها قام مجد البحرية الإسلامية لأول مرة، وخرجت من سواحلها الأساطيل إلى عرض البحر الأبيض المتوسط تنازع الروم سيادتهم على هذا البحر، حتى جعلوا منه بحيرة عربية، وصارت مصر أغلى درة فى عالم الإسلام، يخطب ودها الخلفاء، ويلوذ إليها العلماء والفقهاء ليضعوا قواعد النهضة الفكرية والثقافية التى انبثقت بعد ظلام طويل. وسرعان ما ازدهرت الحياة الاجتماعية والاقتصادية، وانتظمت العلاقة بين الحكام والمحكومين وفق ضوابط واضحة.

كانت مصر كالأرض العطشى إلى الأمن والعدل والاستقرار والحرية الدينية، وحقق لها الإسلام ما تريد، فانطلقت من عقالها لتساهم فى بناء الحضارة الجديدة التى تعددت مراكزها من السند حتى اسبانيا، فكانت لها الريادة بحكم ما تملك من قدرات وفيرة على العطاء والبناء. ولم تكن مصر إقليما تابعا، أو مجرد ولاية خاضعة لدولة عظمى، مثلما كانت عليه فى العصور اليونانية والرومانية، وإنما كانت فى موقع يضاهى مقام الخلافة، وكان أميرها عمرو بن العاص يدرك ذلك جيدا، فيقول: **إن مصر جامعة تعدل الخلافة**. أى تساويها وتكافئها. وكان المركز السياسى والعسكرى لبعض حكامها يفوق مركز الخلفاء فى بغداد، فكان أحمد بن طولون أقوى ألف مرة من الخليفة «المعتمد على الله» الذى كان يستجدى العون والتأييد من ابن طولون فى مواجهة خصومه فى بغداد، حتى أن أحمد فكر فى تهريب الخليفة إلى مصر ليجعل منها قاعدة الخلافة بدلا من العراق، وفرح «المعتمد» لهذا العرض الذى يتيح له المقام الطيب فى مجتمع خال من الصراعات العرقية والمذهبية، وانتقل سرا إلى الموصل ليتخذ

طريقه إلى مصر، لولا أن أخاه «الموفق» قبض عليه وأعاده مخفورا إلى حاضرة العباسيين. وظلت فكرة جعل مصر قاعدة لدولة الإسلام العالمية قائمة فى أذهان حكام مصر الأقوياء، وآخرهم محمد علي، لولا تآمر إنجلترا ومعها دول أوروبا؛ خشية أن تستعيد مصر دورها المتعاظم أيام تحوتمس ورمسيس وصلاح الدين وبيبرس.

لذا، لا يصح أن يقال إن مصر، بعد تمام الفتح، صارت ولاية من ولايات الدولة الإسلامية، أو إنها انتقلت من حوزة الروم إلى حوزة العرب وكأنها قطعة أثاث استخلصها عمرو من هرقل ونقل ملكيتها إليه، والصحيح أن مصر انتقلت من حوزة الروم إلى حوزة أبنائها المصريين الذين تعربوا، والعرب الذين تمصروا واختلطوا بالمصريين وصاهروهم وشكلوا معا هذا المجتمع الجديد الذى رفع راية التعمير والبناء، وصار الحارس الأمين على الدولة المصرية فى عهدها الجديد بعد أن انقطعت حبالها نهائيا بالعالم الأوروبي، واتجهت مصر بكل قوتها إلى العالم الإسلامى المتنامي. وإذا أردت تحديد مكانة مصر الجديدة فلن تجدها تلك الولاية الخاملة المقهورة التى كان يتحكم فيها صعلوك قادم من روما أو بيزنطا ليجلس على عرش مينا وخوفو، وإنما ستجد دولة عظمى تتحكم في مصير دولة الروم الغاربة، وتوجه إليها الضربات القاضية فى معارك البر والبحر.

ولم تكن دولة الإسلام عنصرية ولا طبقية تقوم على سيادة عنصر ممتاز يونانى أو رومانى أو بيزنطي، ومن حوله شعوب مقهورة ومغلوبة على أمرها، وإنما الحقيقة - كما يراها الدكتور حسين مؤنس - أنها كانت دولة عامة يقوم على شئونها كل من يعيشون على أرضها،

لا تفرقة بينهم فى الحقوق والواجبات بسبب جنس أو مكان ، فكل مواطن فى هذه الدولة يعد من أصحابها ، وله الحق فى ولاية مناصبها العامة ، ولا سيادة لبلد على آخر . ولقد انتقل مركز الدولة إلى الأمصار والولايات فى الكوفة بالعراق ثم دمشق بالشام ، ثم بغداد ، ومع ذلك لم ينكر أحد هذا الانتقال الذى اقتضته مصالح عليا للدولة ، ونظر إليه الناس نظرتهم إلى شيء عادى لا يتعارض مع طبيعة الدولة الإسلامية ، فلم تكن دولة الإسلام جنس أو قطر بعينهما ، فدخول مصر أو غيرها فى طاعة الإسلام ليس معناه أنها أصبحت ولاية خاضعة يحكمها جنس غالب ، أو بلد له سيادة ، وإنما أصبحت جزءا من هذه الدولة العامة ، بل أصبحت قاعدة لامتدادات جديدة لدولة الإسلام ، وإلى هذه الطبيعة الخاصة ترجع الحيوية التى ميزتها على غيرها من دول العالمين القديم والوسيط .

موقع الأقباط فى الدولة الجديدة

فأين كان موقع الأقباط فى هذه الدولة الجديدة؟

وأبادر فأجيبك بأن موقعهم كان ماثلا فى قلب وخاطر الخليفة عمر ابن الخطاب ، وعامله على مصر عمرو بن العاص ، قبل أن يتمثل فى شكل مواقع يشغلونها فى كيان الدولة . وهذا المثول الوجدانى هو استمرار لما كان لمصر من مكانة فى نفس رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم ، تشهد عليها وصاياه وتعاليمه . وأما عن الخليفة عمر ، فقد كان قراره قاطعًا فى رفض تقسيم الأرض على الجند الفاتحين ، ورأى أن تترك الأرض لأصحابها ، وعلى ذلك نصت عهود الصلح .

ودعك من الجدل الفقهى والتاريخى حول صيغة فتح مصر ، وهل كان صلحًا أم عنوة(!!) وهل كان ذلك خصيصة لمصر أم طبق على بقية الأرض المفتوحة؟ فإن الذى يهمنا هو حال أهل مصر فى هذا الوضع الجديد. وهل أخرجهم من حومة الشقاء التى كانوا عليها أيام البيزنطيين؟ أم بقى الحال على ما هو عليه . وهذا يقتضينا أن نلقى نظرة على نظام الملكية العقارية قبل الفتح ، وكيف انتزعت ملكية الأراضى من أيدى الأهالي ، ولم يبق لهم إلا حق الانتفاع فقط ، وكيف كانت الضرائب تتعدد فى أشكالها ومسمياتها حتى حار المؤرخون فى ضبطها .

على أية حال ، فإن موضوع الملكية الزراعية مما يطول شرحه ، ولكن يكفى أن نعرف أن الالتزامات المالية فى النظام الإسلامى اختصرت فى شكلين اثنين ، هما : الجزية على الرءوس ، والخراج على الأرض . مما جعل المؤرخ الإنجليزى «بتلر» يعترف ببساطة هذا النظام وخلوه من التعقيد والفساد .

وقد التزمت الحكومة بما جاء فى عهود الصلح من تحديد منضبط لحجم الضرائب وأوان تسديدها وعدم الزيادة عليها فى أى وقت من الأوقات ، حتى فى ظروف المجاعة التى تعرضت لها أرض الحجاز ، امتنع عمرو عن زيادة الضرائب احترامًا للنص الذى يقرر عدم الزيادة .

ويطول الحديث بنا إذا حاولنا تتبع العلاقات الرسمية بين الإدارة الإسلامية وبين أهل البلاد . فذلك مما تزخر به الكتب ، ولكن الذى يعنينا هو العلاقات الإنسانية والروحية ، فهى الأبقى والأجدى ، وهى

جوهر كل علاقة تأتى بعدها. وإذا كانت تعليمات الدولة قد ضمنت مبدأ الحرية الدينية وقررت عدم التدخل فى عقائد الناس ومذاهبهم. فإن الإحساس العام الذى ساد العلاقة بين المسلمين والأقباط كان مفعما بالمحبة والحدب والتعاطف، واحترام شعور المصريين وإشراكهم فى وضع الخطط العامة التى تضمن لهم الرخاء والسعادة والرفاهية. كتب الخليفة «عمر» إلى عامله «عمرو» يطلب منه أن يسترشد بآراء كبار الأقباط فى أمثل السبل لإدارة شئون البلاد، والقضاء على رواسب الإدارة البيزنطية وما كانت تمارسه من أعمال الابتزاز والنهب، وما يراه من أجل قيام إدارة جديدة ترعى مصالح البلاد. وذهب عمرو إلى الأب «بنيامين» يسأله المشورة، فكان جوابه: إن عمار مصر - أو خرابها - إنما يأتى من إدارتها، فإن صلحت صلح كل شيء، وإن فسدت أقحلت الأرض. وكانت نصيحته لعمرو أن يستخرج خراج الأرض فى إبان واحد عند فراغ أهلها من زروعهم، وإن يرفع خراجها فى إبان واحد عند فراغهم من عصر كرومهم، وأن يولى عنايته إلى حفر الخلجان وتطهير الترع وإصلاح الجسور، وأن يتحرى فى اختيار العمال والموظفين حتى يلتزموا بالعدل، ويتجنبوا الظلم والبغي. وعلق بنيامين على الشرط الأخير أهمية كبرى، فلا يختار عاملا ظالما ليلى أمور الناس، وقال له إن تطبيق هذا الشرط الأخير هو أساس لنجاح بقية الشروط.

وسار عمرو على هدى أقوال بنيامين، فأتاح للأقباط الاشتراك معه فى إدارة شئون البلاد، وأقام عمرو جهازا إداريا هرمى الشكل يبدأ عند قاعدته بشيوخ القرى - وهم من الأقباط - الذين يعرفون أحوال الناس ومتاعبهم، ثم ترفع آراؤهم إلى الجهاز الأعلى المكون

من رؤساء «الكور» أى الأقسام، الذين يرفعون للوالى صورة كاملة عن ظروف الريف وما يتعرض له ماء النيل من زيادة أو نقصان وبناء على ذلك يتقرر حجم المحاصيل التى تجبى من الناس.

أعظم ولاة مصر جميعاً

ولا يكتمل الحديث عن إدارة مصر فى العهد الإسلامى دون الحديث عن عمرو بن العاص الذى هو فى نظر المؤرخين أعظم ولاة مصر جميعًا، وأشدهم رأفة وحدبًا على أهلها. فقد كان على دراية تامة بشئون الإدارة والمال، وكان له فهم عميق لنفسيات الناس، وقدرة على كسب محبتهم والتودد إليهم. وقد توثقت العلاقات بينه وبين المصريين، وطالت ممارسته لشئونهم حتى أصبح وكأنه مصرى يناضل عن حقوق المصريين. ومواقفه من الخليفة عمر فى هذا الشأن معروفة، وتشهد عليها الخطابات الحامية المتبادلة بينهما، والتى بلغت فى بعض مراحلها حد التعنيف، وهو من غير شك أول رجال مصر الإسلامية، وأبعدهم أثرا فى تاريخها. وكان لمصر أيضا أثر بعيد فى حياته، ففتح مصر هو الذى تقدم به إلى الصف الأول من قادة الدولة الإسلامية، بحيث أصبح بعد قليل من رجالها المعدودين. وقد تعلق قلبه بمصر، فلم يعد له أمل بعد أن عزله الخليفة عثمان إلا العودة إليها، وفى سبيلها انضم إلى معاوية فى صراعه مع على بن أبى طالب، وقام بدوره المعروف فى الفتنة التى أعقبت مقتل عثمان. وفى ذلك يرى الدكتور حسين مؤنس أنه: لو ترك عثمان عمروا واليا على مصر، أو لو ولاه إياها على بن أبى طالب، لاتجهت الأحداث فى دولة الإسلام وجهة أخرى. وهذا يكشف لك عن أثر الظروف الشخصية فى تحريك أحداث التاريخ.

وقد عرف مؤرخو مصر قدر عمرو، فأحاطوه بهالة من التقدير والإعجاب، وتصدوا للدفاع عنه، وإليهم يرجع الفضل فيما يمثله عمرو من مكانة فى كتب التاريخ والصحابة. فقد وضع لمن جاء بعده تقليد العناية بشئون البلاد ومرافقها والرعاية لأهلها، وعلى آثار عمرو سار من جاء بعده من ولاة الأمويين. فلما جاء العباسيون تغير الأمر جملة، وتمهد الطريق لاستبداد الولاة بشئون مصر، وهو ما سيحدث على يد أحمد بن طولون ومحمد بن طغج الإخشيد.

الرجل الثاني

أما الرجل الثانى فى تاريخ مصر الإسلامية، فهو عبد الله بن سعد ابن أبى السرح، وهو رجل سيئ الحظ رغم قدراته وبلائه ودوره التاريخى فى الفتوح أولا، ثم فى إنشاء البحرية المصرية ثانيا، فهو ضحية قرابته من الخليفة عثمان، إذ كان أخوه من الرضاعة، فوضعه الناس فى جملة «المحاسيب» الذين فرضهم عثمان على ولايات الدولة لمجرد أنهم أقاربه.

كان ابن سعد مشاركا فى حركة الفتح، بل يمكن اعتباره القائد الثانى بعد عمرو بن العاص، وهو الذى قاد أحد الجيوش لفتح مملكة النوبة المسيحية عام ٣١ هـ، ووصلت حملته إلى دنقلة وانتهت بعقد اتفاقية عرفت باسم «البقط»، تصفها الدكتورة سيدة الكاشف بأنها أشبه بمعاهدة عدم اعتداء، وتقضى بأن تؤدى النوبة إلى مصر عددا معينا من الرقيق كل سنة، وأن تؤدى مصر للنوبة قدرا معينا من القمح والعدس وغيره. ومن هذا الرقيق النوبى ظهر أول وأعظم عالم فى

بدايات النهضة الفقهية بمصر ، وأعنى به «يزيد بن أبى حبيب» الذى تولى الإفتاء والعلم والفقه وتربى على يديه أول جيل من علماء مصر الأجلاء ، والذى يقول عنه الإمام الليث بن سعد : يزيد سيدنا وعالمنا . ونرجع الحديث عن يزيد إلى مجال أوسع حتى لا ينقطع بنا حبل الحديث عن عبد الله بن سعد الذى يرجع إليه الفضل فى إنشاء البحرية المصرية بالتعاون مع والى الشام معاوية بن أبى سفيان . الذى يوصف بحق أنه أمير البحر الأول فى تاريخ الإسلام ، وابن أبى السرح هو الأمير الثاني . وكأنما شاء القدر لهذا الرجل أن يشغل الموقع «الثاني» مع عمرو برا ، ومع معاوية بحرا . وكان معاوية أول من فكر فى غزو البحر بحكم مكوثه زمنًا طويلاً فى الشام وانفتاح سواحلها على مرمى حجر من مواقع الروم فى الجزر وفى آسيا الصغرى ، حتى أنه كان يسمع بنباح كلابهم فى قبرص ، فكتب إلى الخليفة عمر مستأذنا فيما اعتزمه . ولكن عمر رفض خوفا على المسلمين من ركوب البحر ، ولم يكن لهم به سابقة ، أضف إلى هذا خوفه من امتداد الفتوح إلى أماد غير مأمونة العواقب . وامتثل معاوية لقرار عمر ، حتى إذا تولى الخلافة عثمان بن عفان جدد معاوية طلبه ، فوافق عثمان بشرط أن يكون تطوعا . وتلقف معاوية الإذن ومضى إلى التنسيق والتدبير مع والى مصر ابن أبى السرح لما يعلمه عن خبرة المصريين فى صناعة السفن والأساطيل . ولما كانت مصر فقيرة فى ثروتها الخشبية ، فقد تم التعاون بينهما على أن تنقل أخشاب الشام إلى مصر لتتحول إلى سفن حربية فى دور صناعتها بالإسكندرية والروضة والقلزم ورشيد . حتى إذا تم إعداد الأسطول خرجت السفن المصرية وصاحبت السفن الشامية واصطدمت مع أسطول الروم فى أولى

المعارك البحرية الفاصلة، وهى معركة «ذات الصواري» فى عام ٣٤ هـ، واكتسبت اسمها من تلاحم الصوارى واصطدام السفن بالسفن، وكأنهم على أرض مستوية، واصطكت السيوف بالسيوف، وكان النصر حليف المسلمين.

وكانت ذات الصوارى بداية المعارك البحرية، وبعدها تجرأ المسلمون على غزو الجزر الرومانية فى قبرص وصقلية ورودس وأرواد وكريت، بل إنهم تجرءوا على غزو مضيق القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية.

ولقد استوقف مجد مصر البحرى نظر الباحث العراقى الدكتور شكرى فيصل، فقال: لقد لقنت مصر العرب درسًا لن ينسوا أثره وفضله، إنها نقلتهم نقلة رائعة من الحياة البرية إلى الحياة البحرية، وقتلت الوهم الذى يحدثنا الرواة بأنهم كانوا يخافون البحر، وربما تعاونت معهم الشام على صياغة البحرية الإسلامية التى سيكون لها شأن فيما تستقبل الدولة الإسلامية من أحداث. ولكن مصر - القاعدة البحرية الأولى - هى التى لقنت المسلمين أبجدية هذا الدرس، ولعل الشام أن تكون أمدته بمواده الأولى بحكم ما فى جبالها من أحراج وأخشاب وسواحل بحرية. لقد تنبه المسلمون إلى أن الانتصار على بيزنطة لن يكون حاسمًا إن لم يتهيأ لهم أن يقابلوا أسطولها بأسطول مثله، وإلا فهى لن تتأخر عن مناجزتهم القتال ومهاجمة سواحلهم، وأن تقطع طريق تجارتهم، وتحرض الرعايا التى عاشت تحت حكم بيزنطة قرونًا طويلة. وكان هذا هو أكبر الفروق بين فتح الفرس لمصر، وفتح العرب لها، فقد غفل الفرس عن هذه الثقافة البحرية، فلم

يجاوزوا حدود الحركات البرية ، ولم يدركوا أن انتقالهم إلى ممارسة البحر كان يمكن أن يحجب غلبة البيزنطيين لهم ومعاودة الكرة عليهم ، أو يؤخرها ، ولذلك لم يقدروا هذه الثروة التى وقعت لهم ، على حين أدرك المسلمون ذلك كله ، فلما حاول «قنسطانز» معاودة الهجوم على الإسكندرية ، سرعان ما قابله أسطولهم الصغير ، فرده ، وحمى الإسكندرية . ولن يستطيع بيان ، مهما أوتى من قدرة - هكذا يقول الدكتور شكرى فيصل - أن يعى ما كان من تحرير مصر ، وغلبة المسلمين عليها ، من أثر بالغ فى التاريخ الإسلامي ، ولعل الأحاديث النبوية الكثيرة ووصايا الرسول ، كانت بعض الانعكاس فى ضمير الجماعة الإسلامية لهذا الأثر ، وسيتقدم المسلمون من مصر إلى طرابلس حتى يبلغوا المحيط .

هذه الأساطيل التى بنيت فى دور الصناعة المصرية ، إنما بنيت بأيدى الأقباط لما لهم من خبرة بحرية قديمة ، كما ظهرت مهارتهم فى الملاحة البحرية التى شاركت فى حركة الأساطيل فى أثناء المعارك ، وشاركت الخبرة المصرية فى إقامة دور للصناعة فى السواحل العربية ، وحين أمر الخليفة عبد الملك بن مروان ببناء ترسانة لصناعة السفن فى تونس ، كتب إلى أخيه عبد العزيز بن مروان والى مصر بأن يوجه إلى معسكر تونس ألف قبطى مصحوبين بأهلهم وأولادهم لإنشاء هذه الترسانة البحرية ، وأظهرت أوراق البردى التى كشفت حديثا فى «كوم أشقاو» والتى تعود إلى عصر الوليد بن عبد الملك أن الوالى قرة ابن شريك كثيرا ما طلب من صاحب كورة أشقاو أن يرسل إليه عمالا وصناعا وملاحين للعمل فى دور الصناعة والمساهمة فى إعداد الأسطول العربى الحربي .

ولم يقتصر نشاط الأقباط على إعداد الأسطول المصري، بل كان والى مصر يرسل الملاحين المصريين للعمل فى أسطول المغرب، أو أسطول المشرق، والمساهمة فى المشروعات البحرية العامة للدولة الإسلامية. وظلت صناعة السفن الحربية زاهرة فى مصر فى العهد العباسى أيضا، فيذكر المقريزى أنه بعد أن نزل الروم دمياط فى سنة٢٣٨ هـ فى خلافة المتوكل، وفى ولاية عنبسة بن إسحاق على مصر «وقع الاهتمام من ذلك الوقت بأمر الأسطول وأنشئت «الشواني» وهى المراكب الحربية برسم الأسطول، وجعلت الأرزاق (المرتبات) لغزاة البحر كما هى لغزاة البر، وانتدب الأمراء له الرماة، فاجتهد الناس بمصر فى تعليم أولادهم الرماية وجميع أنواع المحاربة، وانتخب له القواد العارفون بمحاربة العدو، وكان لا ينزل فى رجال الأسطول غشيم ولا جاهل بأمور الحرب».

ومن هنا، ترى الدكتورة سيدة الكاشف أن صناعة السفن فى مصر، وخاصة السفن الحربية، كانت من أهم الصناعات فى فجر الإسلام، كما أن المصريين كان لهم الفضل الأكبر فى عظمة الدولة الإسلامية البحرية، إذ كانت الخلافة تعتمد عليهم فى إنشاء أسطولها الحربي، بل المعروف أن بناء السفن كان فى البداية بمصر فقط، وظل كذلك إلى زمن معاوية بن أبى سفيان، وحتى بعد ذلك العهد كانت الخلافة تستخدم العمال والفلاحين المصريين فى دور الصناعة التى أنشأتها فى المشرق والمغرب، ثم أصبحت الخدمة فى الأسطول شرفا عظيما يتمناه كل امرئ فى مصر. وانتهى الأمر بأن أصبحت الدولة الإسلامية سيدة البحر المتوسط، وإذا كان الفضل لعظمة الخلافة البحرية يرجع إلى الشعوب التى فتحوها، والتى تعلموا منها هذا

الفن ، والتى استخدموها فى حاجاتهم البحرية ، فلنا أن نقول ـ غير مبالغين ـ بأن الفضل الأكبر والأول يرجع إلى مصر والمصريين .

* * *

وإذا كانت الدكتورة سيدة الكاشف قد نسبت الفضل لذويه، فإن الإنصاف يقتضى أن تعترف بالفضل أيضا للدولة الإسلامية التى فتحت أمام مصر طرق التقدم والنمو والعظمة، وخرجت بها من القوقعة البيزنطية المغلقة، إلى رحابة العالم الفسيح برا وبحرا، وعلما وثقافة وحضارة، ونورا وهداية. وهو أمر يكفى للدلالة على أن العهد الإسلامى لم يكن استعمارا أو احتلالا كما يردد بعض الحانقين، وإنما كان تعميرا حقيقيا، وبناء قويا، ومجدا مؤثلا أضاف إلى مجد مصر القديم صفحة زاهية.

شخصية المقوقس

ارتبط تاريخ الفتح الإسلامى لمصر بشخصية من أشد شخصيات التاريخ غموضًا، رغم كونها الشخصية المحورية فى قصة الفتح، فعن طريقه خرجت مصر، رسميا، من حوزة دولة الروم البيزنطية إلى حيِّز السيادة العربية، وكان هو المتحدث الرسمى عن مصر فى المفاوضات والتعاقدات التى تمت مع قائد الفتح عمرو بن العاص، ومع ذلك اختلفت المصادر العربية والإفرنجية حول شخصية «المقوقس» اختلافا كبيرا، حتى طمس الخلاف على شخصيته الحقيقية، وأحالها مسخًا مبهمًا مجهول الاسم والنسب والهوية، وكأنه ورقة جافة طوحت بها العواصف إلى مكان سحيق. وفى ذلك يقول عباس محمود العقاد: يندر أن توجد فى العالم كله سيرة خلافية من هذا القبيل. وهو يلقى شطرا من اللوم على المؤرخين الناسخين، وشطرا آخر على مؤرخى العصور الحديثة الذين يقحمون أهواءهم فيما يكتبون، ويتناولون مسائل التاريخ الخالية بخصومات

الأيام الحالية، وينظرون إلى الفتح العربى وكأنهم ينظرون إلى فتح يحدث فى هذه الأيام.

أما عن مؤرخى العرب، رغم قربهم من وقائع الفتح، فإنهم لم يقدموا لنا شيئًا كثيرًا عن شخصية الرجل، واكتفوا بالإشارة إلى لقبه (المقوقس) دون إسهاب عن شخصيته، والأمة التى كان ينتمى إليها، هل كان مصريا بالجنس أم بالادعاء؟ وهل كان مسيحيا على مذهب الكنيسة المصرية الأرثوذكسية (اليعقوبية) أم كان ملكيا خلقدونيا على مذهب الدولة الرومية؟ أم كان منافقا، يبطن اليعقوبية ويظهر الملكية؟ ولم يكن المؤرخون الإفرنج القدامى والمحدثون، بأسعد حظا من أضرابهم المسلمين، فقد تضاربت تفسيراتهم لشخصية المقوقس حتى جعلوا منه شخصين: أحدهما المقوقس ويمثل قبط مصر، والآخر «قيرس» ويمثل الدولة البيزنطية دينيا وسياسيا وعسكريا. ومنهم من قال إنه البطريرك «بنيامين» رأس الكنيسة المصرية زمن الفتح. وقال آخرون: بل هو البطريرك «فيروش» رأس الكنيسة الملكية المناوئة للكنيسة الوطنية، ومنهم من أراح رأسه من صداع البحث فأنكر وجوده على الإطلاق(!!).

لقد حصر الدكتور حسن إبراهيم حسن أستاذ التاريخ الإسلامى أقوال المؤرخين عن المقوقس، ويتبين منها أنهم ذهبوا مذاهب شتى فى تحديد شخصية الرجل:

البلاذرى فى فتوح البلدان: إن المقوقس صالح عمرو ولم ينقض الصلح مع القبط حين رفضه هرقل، وأنه اعتزل أهل الإسكندرية حين نقضوه، فأقره عمرو ومن معه على أمرهم الأول (أى صلح بابليون).

وقال الطبري : فلقيهم هناك (أمام الحصن) أبو مريم جاثليق مصر ومعه الأسقف ، بعثه المقوقس لمنع بلادهم . ووصف المقوقسس بأنه صاحب الإسكندرية .

وعنه أخذ ابن الأثير فقال فى «الكامل» : فأخذ المسلمون (باب إليون) وساروا إلى مصر ، فلقيهم هناك «أبو مريم» جاثليق مصر ومعه الأسقف بعثه المقوقس لمنع بلادهم (أى حمايتها من العرب) فوجد أهلها معدين لقتاله ، فأرسل المقوقس إلى عمرو يسأله الهدنة مدة ، فلم يجبه إلى ذلك ، وقال له : لقد لقينا ملككم الأكبر (هرقل) فكان منه ما بلغكم (إشارة إلى هزيمته فى الشام) فقال المقوقس لأصحابه : صدق .

(والجاثليق لقب بطارقة الكنائس النسطورية فى الشام والعراق وأرمينيا ، ولم يعرف هذا اللقب فى مصر) .

وقال ياقوت فى معجم البلدان : إن أمير الحصن كان وقت الفتح «المندفور» من قبل المقوقس بن قرقب اليونانى الذى كان ينزل الإسكندرية .

وقال ابن خلدون : إن المقوقس كان من القبط .

وقال ابن دقماق : كان المقوقس رومانيا ، وإنه نائب هرقل .

وروى المقريزى فى الخطط : ثم أحاط المسلمون بالحصن ، وأميره يومئذ «المندفور» الذى يقال له «الأعيرج» من قبل المقوقس بن قرقب اليوناني ، وكان المقوقس ينزل الإسكندرية وهو فى سلطان هرقل ، غير أنه كان حاضرا الحصن حين حاصره المسلمون . وتابع المقريزى بن عبد الحكم فى إبقاد المقوقس إلى زمن فتنة «إيمانويل» قائد

الأسطول الرومى الذى استعاد الإسكندرية عام ٢٥ هـ. كما تابع المقريزى ياقوت في وصفه المقوقس بأنه ابن قرقب اليوناني، وأضاف أنه كان للقبط بطريق فى الإسكندرية اسمه «أبو ميامين» وأن المقوقس صالح العرب، لكن هرقل أرسل إليه يقبح رأيه.

وقال الواقدي: إن ملك القبط يومئذ المقوقس بن راعيل.

وقال أبو المحاسن فى النجوم الزاهرة: إن بنيامين كان بطرق القبط فى الإسكندرية، وإن أمير الحصن يومئذ «المندفور» الذى يقال له «الأعيرج» من قبل المقوقس بن قرقب اليوناني، وكان ينزل الإسكندرية وهو فى سلطان هرقل، غير أنه كان حاضراً الحصن حين حاصره المسلمون. ونقل عنه «ابن كثير» أن جاثليق مصر كان: أيامريامين.

ولم يخالف السيوطى ما قاله أبو المحاسن.

اختلاف وتضارب

وبتحليل هذه الطائفة من المراجع العربية يتبين أننا أمام عديد من الأسماء التى نسبت إلى المقوقس، منها الأعيرج أو الأعرج وأبو مريم وابن قرقب اليوناني، ولم يتفقوا على المذهب الذى كان ينتمى إليه، أو الأمة التى يمثلها. وعلى الوتيرة نفسها من الاختلاف والتضارب اختلطت أقوال المؤرخين المسيحيين، وكان أقربهم إلى زمن الفتح «سعيد بن البطريق» فقد عاش ما بين عامى ٢٦٣ و٣٢٨ هجرية، فشهد العصرين الطولونى والإخشيدي، وكان طبيباً مشهوراً إلى جانب كونه كاهناً على مذهب الدولة الرومية، حتى صار بطريركاً

على الإسكندرية تحت اسم «أوتيخوس» أو «أوتيخا» وله كتب كثيرة في الطب والتاريخ، فقال عن المقوقس إنه كان ملكيا في الظاهر، يعقوبيا في الباطن، وإنه كان عامل الخراج على مصر من قبل الدولة البيزنطية، فلما احتل الفرس مصر اقتطع لنفسه ما كان تحت يده من أموال، ولذا كان يحاذر أن يقع في يد هرقل فيقتله، فاحتال على الروم وأقنعهم بقوة العرب، وتحدث عن ظروف الكنيسة الملكية زمن الفتح، فقال إن «سرجيوس» بطريرك الإسكندرية لما سمع أن المسلمين غلبوا الروم وفتحوا فلسطين وأنهم سائرون إلى مصر، ركب البحر وهرب إلى القسطنطينية، فبقي كرسي الإسكندرية بعده بلا بطريرك ملكي سبعا وتسعين سنة، ولما هرب صيِّر بعده «كورش» - أي قيرس - بطريركا على الإسكندرية، وكان مارونيا على دين هرقل، إلى أن وصل إلى حوادث الفتح في أثناء حصار حصن بابليون، فقال: وكان عامل الخراج بمصر رجلا يدعى المقوقس - قبل هرقل، وكان يعقوبيا مبغضا للروم، إلا أنه لم يكن يتهيأ له أن يظهر مقالته لئلا يقتله الروم. ثم يسرد الحوار الذي دار بينه وبين عمرو بن العاص حول شروط الصلح، وأنه قال لعمرو: أما الدخول في دينكم فهذا ما لا يمكن، وأما الصلح فقد رضيت أنا ذلك لنفسي ولأصحابي القبط، وامتنع الروم أن يجيبوا إلى الصلح وقالوا: لا نفعل ذلك أبدا، وإنما فعل المقوقس هذا مكرا منه وخديعة حتى أخرج الروم من الحصن، ثم رضي بالصلح ليسلم له ما أخذ من مال.

ونستطيع أن نستخلص من أقوال ابن البطريق أنه كان هناك شخصان: أحدهما البطريرك الملكي كورش أو قيرس، والثاني المقوقس الذي كانت له سلطة التفاوض مع الفاتح العربي، ويتهمه ابن

البطريق بأنه تواطأ مع العرب تخوّفًا من الحساب والعقاب . ونستطيع أن نكتشف التخبط فى أقوال ابن البطريق، إذ نسب إلى المقوقس أنه رضى بالصلح عن نفسه وعن أصحابه (القبط)، وكيف يتفق ذلك مع كونه ممثلا للدولة الرومية التى تبغض القبط، ولا تعترف بحقهم فى تقرير مصير البلاد(!!).

شهادة ابن المقفع

أما المؤرخ الثانى الذى تعرض لحوادث الفتح، فهو «ساويرس بن المقفع» أسقف الأشمونين، مؤلف كتاب «سير الآباء البطاركة» الذى عاش فى العصر الفاطمي، ويقول المؤرخ البريطانى «بتلر» إنه يوجد من كتابه ثلاث نسخ معروفة : واحدة فى المتحف البريطاني، وهى من القرن الخامس عشر، وواحدة فى مكتبة باريس من القرن الرابع عشر، والثالثة أقدم منهما، وهى عند مرقص سميكة باشا ـ مؤسس المتحف القبطى بالقاهرة ـ وترجع إلى القرن العاشر الميلادي، وقد اعتمد «بتلر» فى دراسته لشخصية المقوقس على ما جاء فى كتاب ساويرس، رغم اعترافه باستحالة قراءة الكتاب لنقص فى الإتقان، فماذا قال ابن المقفع عن المقوقس؟

قال : ولما ملك هرقل أقام الولاة فى كل موضع، وأنفذ إلى مصر «قيرس» ليكون واليا وبطريرقا، فلما وصل إلى الإسكندرية، أعلم الأب بنيامين ملاك الرب به، وأمره أن يهرب هو ومن معه من ههنا؛ لأن شدائد عظيمة تنزل عليهم. فلما تمت عشر سنين من مملكة هرقل والمقوقز، أنفذ ملك المسلمين الخليفة سرية مع أمير من أصحابه يسمى

عمرو بن العاص، فنزل عسكر المسلمين بقوة عظيمة فى اليوم الثانى من بذونة، وكان الأمير عمرو قد هدم الحصن، وأحرق المراكب بالنار، وأذل الروم، وملك بعض البلاد.. حتى وصلوا إلى قصر مبنى بالحجارة بين الصعيد والريف يسمى «بابلون» فضربوا جميعا خيامهم هناك حتى ترتبوا لمقاتلة الروم... إلخ.

وإلى هنا لا نجد ذكرا للمقوقس، حتى إذا بلغ فى حديثه إلى فتح الإسكندرية قال: فلما ملك عمرو المدينة ورتب أمورها، خاف الكافر والى الإسكندرية، وهو كان واليها وبطريركا من قبل الروم، أن يقتله عمرو، فمص خاتما مسموما فمات لوقته (...) ولما كتب عمرو عهد الأمان لبطريرك النصارى بنيامين، عاد إلى الإسكندرية بفرح عظيم بعد غيبته ثلاث عشرة سنة، منها عشر سنين لهرقل الرومى الكافر، وثلاث سنين قبل أن يفتح المسلمون الإسكندرية، لابسا إكليل الصبر وشدة الجهاد.

ويستخلص العقاد من شهادة المؤرخ القبطى ساويرس أنه أخرج لنا المقوقس فى صورة تناقض جميع الصور التى يظهر فيها خائنا متواطئا مع العرب؛ فإنه قتل نفسه خوفا منهم أن يدمروا عليه الإسكندرية، وكان الفرح بهم من جانب الحزب المصرى فى الكنيسة برئاسة البطريرك بنيامين الذى عاد إلى كرسيه آمنا بعد موت المقوقس وخروج الروم منها.

جذور مصرية

ومن مؤرخى القرن السادس الهجرى (الثالث عشر الميلادى) المسيحيين الذين أشاروا إلى المقوقس: أبو صالح الأرمني: إذ قال فى

معرض كلامه عن آحد الأديرة بالصعيد: إن هذا الدير كان يأوى إليه الأب بنيامين مختفيا فى ملك هرقل الخلقدونى المذهب، و«جريج بن مينا» المقوقس بمصر. وقال إنه وجد فى كتاب «الجناح» أن أسقف الروم بمصر كان يسمى «قيرس». والطريف فى هذه الشهادةأنها تنسب المقوقس إلى جذور مصرية تحمل اسم مينا، وتؤكدها شهادة أبى المكارم سعد الله بن جرجس فى القرن الثانى عشر، إذ قال عن إقليم البحيرة: «إن أرضه كانت مزروعة كروما جميعا لامرأة جريج بن مينا مقوقس الروم»، ويستنبط العقاد من ذلك أن تسمية المقوقس باسم جريج بن مينا تؤكد مصريته؛ لأن التسمية بأسماء ملوك مصر الأقدمين لم تكن معهودة فى أسماء الرومان أو الروم. يضاف إلى ذلك ما نقلته المجلة القبطية (العدد السادس من السنة الثالثة) فى تعليق على مخطوطة جداول البطاركة: أنه فى أيام الأب بنيامين أن ملكت العرب أرض مصر، وكان دخولهم فى ثانى بذونة سنة ٣٣٣، وكان المقوقز بن مينا الهيراطيقى نائب هراطقة هرقل بالديار المصرية، يطلب ويضطهد الأقباط، وظفر بأخيه مينا (أخى بنيامين) وأنزل به عقوبات عظيمة وأغرقه. وهذه الكلمات - فى رأى العقاد - لا ترجح شيئا كما ترجح انتماء المقوقس إلى مصر، وأنه نشأ فى بيت يسمى أبناءه باسم «مينا»، وهو تقليد وطنى لم يؤثر مثله عند أحد من الرومان الشرقيين أو الغربيين.

شخص واحد أم شخصان؟

ويبدو الغموض الذى أحاط بشخصية المقوقس وكأنه أثار شهية الباحثين والمستشرقين، فأدلوا بدلوهم بعد تمحيص النصوص

الشحيحة التى توافرت لديهم عن حوادث الفتح. فقال المؤرخ فون إنكه: إن المقوقس كان واليا على مصر، وإنه من القبط. وقال دى جويه: يظهر أن مؤرخى العرب خلطوا أحيانًا بين المقوقس وقيرس بطريرك الإسكندرية، مع أنهما شخصان مختلفان كانا يشغلان مركزين متباينين. وقال «ملن» إن المقوقس هو جريج بن مينا الذى ذكره يوحنا النيقوسى (المؤرخ الذى عاصر حوادث الفتح) وقال عنه إنه كان واليا على أثريب (بنها) وأنه هو الذى أدلى بمقاليد مصر إلى العرب. أما «ستانلى لين بول» فقد مال إلى رأى «ملن» فى اسم جريج بن مينا، ولكنه قال إنه كان من القبط. وقال الأستاذ «بري» إنه كان واليا على عموم الديار المصرية، وكان من القبط. وقال «جبون» إن المقوقس كان مصريا وثريا نبيلا. وهو نفس ما قاله«إيرفنج» أن المقوقس من عنصر مصرى (قبطي) فى مرتبة الأمراء أو النبلاء. وأنه كان منافقا عظيما، وكان يعقوبى المذهب (أرثوذكسي).

وفى سنة ١٨٨٨م نشر المستشرق «أميلينو» بحثا فى المجلة الآسيوية، لخص فيه رأيه على النحو الآتي:

- أن المقوقس كان يسمى جورج بن مينا، وابن قرقب. وينبغى أن يكتب ابن فرقب (بالفاء الأولى).

- أن المقوقس كان قبطى الجنس من جهة واحدة، إن لم يكن من جهتين، وكان فى خدمة الإمبراطور هرقل وكان في الأصل ملكى المذهب.

- أنه كان بطريركا ملكيا، ولا يمكن أن يعلم تاريخه إلا من باب الحدس والتخمين.

ـ أن لفظ المقوقس كان كنية مشتقة من «كوكيون» باليونانية ، وهو اسم نوع من النقود .

واعتمد بتلر هذا الرأى وقال إن اللفظ الحبشى لهذه الكلمة هو المقوقَس (بفتح القاف الثانية) وأن هرقل نقل «قيرس» إلى مصر من بلاد القوقاز ، فلا يبعد أن يكون قد لُقِّب فى مصر بالقوقاسي ، وهى (أقوقاسيوس) باليونانية ، و«بكوخيس» بالقبطية ، ولا يبعد أن تكون الكلمة القبطية حرفت فى نقلها إلى العربية فصارت «مقوقس» أو قدمت عليها «الميم» للنسبة .

ومما قاله أملينو بشأن الخلاف حول المقوقس وقيرس إن قيرس لا بد أن يكون قد ترك مصر فى سنة٦٣٩ ، ويحتمل أن يكون المقوقس قد اختير ليحل محل قيرس . وبعد أن رجح أملينو كون المقوقس ملكيا فى مقاله ، عارض نفسه فقال : إذا كان هذا صحيحا ـ أى كونه ملكيا ـ فكيف يتأتى لمؤرخى القبط الذين كتبوا تواريخهم بالعربية ألا يقولوا شيئا عنها(!!) .

أما بتلر فقد اعتمد على ما رواه ساويرس أسقف الأشمونين من أن المقوقس كان ملكيا ، ورفض مقولات غيره بأنه كان يعقوبيا . وهنا يعترض كل من الدكتور حسن إبراهيم حسن والدكتور حسين مؤنس على هذا التشدد من جانب بتلر فى رفضه شهادات المؤرخين المسيحيين الآخرين بأن المقوقس كان يعقوبيا ، ومما قالاه على سبيل الاعتراض :

إذا سلم بتلر بأن أوتيخا (سعيد بن البطريق) الملكى المذهب قد جعل المقوقس يعقوبيا لكى لا تقع على الملكيين تبعة عمله ، فلم لا

يظن أيضا أن ساويرس اليعقوبى المذهب، قد جعله ملكيا لأنه خان البلاد وصالح العرب، وإذا كان المقوقس رومانيا ملكيا محبا للروم لا يخشى سوءا إذا احتفظ بمصر فلماذا التف حوله القبط وتابعوه وصالحوا العرب لصلحه لهم وهو ملكي؟ وكان اليعاقبة يعتبرون مجرد الاشتراك مع الملكيين فى أى عمل خيانة عظمى لا تغتفر(!!) وإذا كان المقوقس ملكى المذهب، وأنه هو الذى نكل بالقبط عشر سنين، فكيف يعقل أن يكون القبط في صفه، وأن تتركه الروم وشأنه، ولم ينقض الصلح مع القبط، بينما استمر الروم فى الدفاع عن البلاد إلى النهاية؟!

حقيقة المقوقس

ويخلص الدكتور حسن إبراهيم إلى أن بتلر وغيره من المؤرخين لم يوفقوا فى وصفهم للمقوقس بأنه كان ملكيا، ويميل إلى القول بأنه كان قبطيا يعقوبى المذهب من أصل يوناني، عينه هرقل لما رأى فيه من الحزم والنبل واحترام القبط له، وما اشتهر به من جميل الخصال وكريم الأفعال، وإن كان ملكيا فى الظاهر لكنه اعتنق المذهب اليعقوبى سرا كى لا يعلم بذلك هرقل فينتقم منه. وإذا قيل إن البطريرك بنيامين فر من وجه المقوقس نفسه حين علم بعودته إلى مصر، فلا يبعد أن يكون المقوقس نفسه هو الذى أشار على بنيامين باللجوء إلى أحد الأديرة كي ينجو من ظلم الروم، والظاهر أن المقوقس لم يكن له من النفوذ والسلطان ونفاذ الكلمة ما يكفل له وقف هذه المذابح التى قام بها الروم حتى لا تنكشف حقيقة أمره، فيمثل به هرقل؛ لأن الروم كانوا قتفون أثر من اشتهر بمخالفته مذهب خلقدونيا، أو عرف بالميل إلى

اليعاقبة أعداء هذا المذهب ، ولا يبعد أن يكون قيرس والمقوقس شخصين مختلفين ، فكان للأول السلطة العسكرية ، وللثانى السلطة المدنية . وكان قيرس ملكيا متعصبا لمذهبه ، فقام بهذه الاضطهادات فى جميع أنحاد الديار المصرية ، ولم يكن للمقوقس تلك المذابح البشرية والاضطهادات المريعة ، فلما رأى المقوقس توغل العرب فى قلب مصر ، وأن البلاد واقعة لا محالة فى أيديهم ، وأن سلطان الروم أقرب إلى الزوال ، اتجه بقلبه وقالبه إلى العرب ، وعمد إلى ممالأتهم هو والقبط ؛ لأنه كانت له نفس طموحة .

أما الدكتور حسين مؤنس فقد ذهب إلى أن المقوقس كان كبير أقباط مصر ، وربما كان يتولى بعض شئون الحكومة ، فلما دخلها الفرس واختفى رجال الدولة البيزنطية ، تولى هو الأمر تحت إشراف الفرس ، وفى أيامهم أتى رسول النبى محمد صلى الله عليه وسلم فلم يجد من يتحدث إليه إلا كبير القبط هذا ، فأحسن استقباله ، ورد ردا لطيفا وبعث بهديته المعروفة إلى النبي ، فلما استعاد الروم مصر ، وجدوا هذا الرجل قابضا على أزمة الأمور المالية والإدارية ، فتركوه على هذه الناحية لأنه لم يكن يهمهم من مصر إلا الجباية ، وكان الرجل خبيرا بها ، واكتفوا بإرسال قواد عسكريين لبابليون والإسكندرية ، ثم أرسلوا الأسقف قيرس ليعالج الخلاف المذهبى بين الأقباط والبيزنطيين ، فأساء قيرس إلى المصريين فنفروا منه وعلى رأسهم المقوقس الذى أصبح مستعدا للتفاهم مع أى قوة يمكن أن تخلص الأقباط من الاضطهاد البيزنطي . فلما أقبل العرب وتخاذل الروم وتوزعت جهودهم وتوالت عليهم الهزائم ، تصدى المقوقس لإيجاد مخرج ، وتكلم مع العرب باسم الأقباط - دون البيزنطيين -

وكـانت هناك فـرق قـبطيـة فى الجـيش البـيـزنطى المدافع عن مـصـر، فـائتـمـرت بأمـره، وانضـم إليـه الرهبـان ومن إليـهم من أهل البـلاد. وعـرف الرجل كـيف يحـصل من العـرب على عـهـد يؤمن القـبط على عـقـيـدتهم وأمـوالهـم، فكانت نتـيـجـة ذلك دخـول مـصـر فى طاعـة العرب.

* * *

وبعد...

هل وفّينا الموضوع حقه...؟

وهل انجلت شـخـصـيـة المقـوقـس وسط هذا الركـام من الأقـوال والتفسيرات المتضاربة؟

لعل القـارئ قد اكـتـشـف أن كل مـا قـيـل من آراء هى فـروض يغلب على بعضها صفة الترجيح على البعض الآخر، ولـم تصل إلى درجة الحقـيقة التـاريخية الثـابتة. ولا يسـتطيع بـاحـث جـاد أن يقطع بصـحة بعضـهـا وإنكار البعض، ولا تزال شـخـصيـة المقـوقس فى حـاجة إلى مزيد من الضـوء يجلو غمـوضها، وينير الطريق أمام الأجيـال المعاصرة لمعرفة هذه الحلقة المفقودة فى تاريخ مصر فى العصر القبطي.

الإسلام يدخل قلوب المصريين

الصورة الشائعة فى أذهان المسلمين عن انتشار الإسلام فى مصر هى أن المصريين تحولوا إلى الإسلام بين عشية وضحاها، وأنهم دخلوا فى دين الله أفواجًا عقب الفتح، تدفعهم رغبة جامحة فى التشفى والانتقام من العهد البيزنطى البائد(!!) أما الصورة الشائعة فى أذهان غير المسلمين فمستوحاة من أسطورة انتشار الإسلام بالقهر المباشر عن طريق الدولة الحاكمة، أو غير المباشر عن طريق الفرار من الجزية التى قررتها عهود الصلح(!!) وليس أبعد عن الحقيقة التاريخية من هذه الصور التى لا تؤيدها الوقائع والأحداث، ففكرة التحول الدينى بالطفرة تنقضها الدراسات الاجتماعية عن حركة الأديان عند نشأتها، والصعوبات التى تواجهها وهى تشق طريقها فى أرض جديدة. ونشأة الإسلام نفسه تشهد بهذا، فقد مكث الإسلام فى مكة - مهده الأول - ثلاثة عشر عاما يحرث فى أرض شديدة الوعورة، حتى كانت الهجرة، والشعوب بطبيعتها لا تتحول من دين إلى دين فى

يسر، فما بالك بشعب يمثل الدين نواة تكوينه منذ عصور ما قبل التاريخ، وأكسبه التدين مراسا شديدا في المحافظة على موروثه الديني، ورفض الطفرة في مسائل الدين والعقيدة. وكانت الطفرة من أسباب فشل ثورة إخناتون حين أراد حمل المصريين على عبادة «آتون» بدلا من عبادة «آمون» التى كانت مستقرة فى الوجدان المصرى وصار لها معابد وكهنة ونفوذ وسلطان، كذلك لم يتحول المصريون عن الوثنية إلى المسيحية إلا عبر سنين من المجاهدة والإقتناع الحر، وبعد أن استبان لهم ما تنطوى عليه المسيحية من مثل عليا. فكيف نتصور أن يتحول المصريون من المسيحية إلى الإسلام بمجرد انتقال سلطة الحكم من الروم إلى العرب(!!).

أما عن دعوى انتشار الإسلام بالقهر، فليس فى حوادث الفتح ما يؤيدها، وليس فى سجلات الكنيسة المصرية حادث عن إجبار مسيحى على اعتناق الإسلام، علما بأن هذه السجلات لم تترك صغيرة أوكبيرة من حوادث القهر والاضطهاد فى العصرين الرومانى والبيزنطى إلا ورصدتها، ولا يمر أسبوع إلا وتحتفل الكنيسة بذكرى شهيد من هؤلاء البررة، ولا تقع العين على شيء من ذلك فى حوادث الفتح الإسلامي، وليس فى ذلك ما يدعو إلى الغرابة، فالإسلام لا يعترف بإيمان المكره، ولا يكون اعتناق الإسلام إلا عن طريق الإيمان الحق، والإرادة الحرة، والاقتناع المباشر. وأية شبهة قهر تفسر هذا التدين وتجعل منه أمرا غير مشروع ولا يعتد بها، وعلى كثرة ما عرف تاريخ الإسلام من حكام الجور والاستبداد، إلا أن أيا منهم لم يكن يجرؤ على المساس بهذا الأصل من أصول العقيدة الإسلامية، وهو أنه «لا إكراه فى الدين» وارتبطت حركة الفتح

الإسلامى منذ بزوغها بهذا الالتزام ولم تخرج عنه أو عليه، وبالرغم من سخونة المعارك وقسوتها، فإن تلك الجيوش الجرارة لم يكن الهدف منها فرض الإسلام على الناس، وإنما إزاحة القوى الطاغية التى كانت تحول بين الناس وبين سماع صوت الدين الجديد، فمن شاء فليؤمن به طواعية واختيارا، ومن شاء فليظل على دينه ويعيش فى كنف الدولة الحاكمة الجديدة آمنًا على دينه وعقيدته وحريته الشخصية وعرضه وماله، على أن يؤدى للدولة حقها فى ضريبة الرأس والأرض.

كان إطلاق مبدأ الحرية الدينية هو الفتح الحقيقى الذى دخل به العرب قلوب الأقباط بعد أن أزاحوا عن نفوسهم كابوس القلق والتوتر الذى كان سائدًا طوال العصر البيزنطي، ومكنوا لهم من مشاعرهم العميقة فى أنهم أصحاب البلاد الذين يجب أن يلوا أمرها، ولنا أن نتخيل الأثر النفسى على الأقباط وهم يسمعون نداء الفاتح العربى داعيا الأب بنيامين - رأس الكنيسة - ومعلنا: «الموضع الذى فيه بنيامين رئيس النصارى له الهدى والأمان والسلام من الله، فليحضر آمنًا مطمئنًا، ويدبر حال بيعته وسياسة طائفته». فيخرج البطريرك من عزلته معززا مكرما، ويلتقيه عمرو بالبشر والحفاوة، ويطلق يده فى الإشراف على شئون القبط، ويعود معه كل الذين فُتنوا عن دينهم وتعود للكنيسة أجراسها، وتنتعش حركة بناء الكنائس وإصلاح ما تهدم منها فى سنوات القهر والعذاب.

فلاعجب - كما تقول الدكتورة سيدة الكاشف - إذ عم السرور والفرح أهل مصر. ولم يجد الأقباط فى العرب عدوا لدينهم ولا

لمذهبهم كما كان البيزنطيون، بل كفل العرب لهم الحرية التامة فى إقامة شعائر دينهم واتباع مذهبهم الأرثوذكسي، وكما أن روح الإسلام الحقة هى التى حفزت العرب على اتباع سياسة التسامح الدينى نحو المصريين، فقد كان للعوامل السياسية أكبر الأثر فى حملهم على ترك مقاليد الأمور فى يد الأقباط، محتفظين لأنفسهم بالسيادة العليا وتنفيذ أحكام الدين. أى أن الأقباط أصبحوا يتمتعون بحرية تامة فى الدين، كما أصبح لهم نصيب كبير فى إدارة بلادهم.

فى هذا المناخ المشبع بروح الود والتسامح والاستقرار النفسي، حدثت أكبر عملية مزج بين العرب الوافدين وأهل البلاد، ولا تقارن بها الهجرات التى توالت على مصر طوال تاريخها القديم. لقد عرفت مصر الهكسوس - الرعاة الآسيويين - لمدة قرن ونصف قرن، عاشوا فى معزل عن روحها وكيانها إلى أن طردتهم دون أن يتركوا أثرا فى كيانها الروحى أو السلالي، وكذلك الحال مع بنى إسرائيل الذين توطنوا على هامش الدلتا فى أرض جاشان، على برزخ السويس، إلى أن خرجوا إلى الشتات فى التيه، ومن بعدهم جاء الأشوريون فالفرس ثم اليونان فالرومان. . . وكلهم عاشوا فى مستوطنات مغلقة، وجاليات منعزلة ومتعالية على أهل البلاد. فما بال هذه الموجة العربية المصاحبة للفتح قد امتزجت بالجسم المصرى وأمدته بقطرات من دمائها، وفى الوقت نفسه حملت إليه لغتها ورسالتها الدينية المقدسة(!!).

لا يمكن تفسير هذه الظاهرة الفريدة فى التاريخ المصرى إلا برصد أواصر القربى والتراحم التى ربطت بين الوافدين والمستقبلين عند مبدأ

الفتح . فمنذ الخطوات الأولى للعرب فى مصر وهم يشعرون بهذه الرحم الماسة بينهم وبين أهل مصر، ولم ينبت هذا الشعور من فراغ، وإنما كانت تغذيه إيحاءات عبر عنها القرآن الكريم فى ذكر مصر مقرونا بالأمن والخير والاستقرار، وتمثلت فى استيصاء النبى لأهل مصر وما يربطهم بالعرب من رحم وذمة، وتجسدت فى وحدة المنبع الذى استقى منه دين الوافدين ودين المستقرين، ثم جاءت حوادث الفتح لتؤكد صدق هذه المشاعر، وكان مردودها لدى الأقباط وقوفهم إلى جانب المسلمين يشدون أزرهم. ولقد قابل الفاتحون المسلمون هذه الروح بمثلها، فكان أول ما فعلوه أن أتاحوا للأقباط الحرية والأمن فى دينهم ودنياهم. ثم كان هذا الاختلاط الذى بدأمحدودا من خلال المعاملة اليومية فى دواوين الحكومة، ثم لم تلبث الدائرة أن اتسعت حتى صار الريف والمدن محلا لهذا المزج والانصهار.

نظام الارتباع بداية الامتزاج

عند نشأة الفسطاط ـ مقرا للحكم ومستودعا للجند ـ تم تخطيطها على نمط الأمصار التى سبقتها فى البصرة والكوفة والجابية، وتوخى الخليفة عمر أن تكون (ملمومة) عن أجواء المدن القديمة بخيرها وشرها، وحتى لا يفقد الجند حرارتهم القتالية ولا تضعف فيهم روح الرابطة والأهبة للغزو، ولذا حرم عليهم احتراف الزراعة أو تملك الأرض حتى لا يخلدوا إليها، ولا تشدهم تبعاتها عن التعبئة الدائمة.

هذا القيد الذى فرضه الخليفة عمر على جند الفتح وجد شيئا من التخفف فى دهاء عمرو ورغبته فى بناء جسور الصلة بين العرب

والمصريين، وتحقق له ذلك من خلال مشروعه الذى يعرف باسم «الارتباع»، وهو تعبير مشتق من «الربيع» حين تكسو الخضرة أرض مصر، وتزدهر بزراعة البرسيم الغذاء الشهى للخيل فى بلد يفتقر إلى المراعي. وكان النظام الذى وضعه عمرو يقضى بأن ينطلق الجند بخيولهم إلى الريف لقضاء شهور الربيع فى المناطق المتاخمة للصحراء، فالخيل تغتذى البرسيم والرجال يمارسون الصيد؛ هوايتهم العربية الأصيلة، وفى كل ذلك تقوى خيوط الصلة بين العرب والمصريين، كل منهما يقترب من الآخر ويتفهمه ويعرف نواياه. وكان عمرو حريصًا على أن تكون شهور الارتباع مجالا لكى يرى المصريون النموذج العربى فى أفضل حالاته: عفّ البصر، طاهر الذيل، نظيف اليد، سليم الوجدان. وكانت وصاياه تخرج فى شكل سجل رسمى يطرح على الجند وهم بصدد التوزع على المناطق التى سيذهبون إليها فى جميع أنحاء البلاد ومنها:

«واستوصوا بمن جاورتموه من القبط خيرا، وإياى والمشمومات والمعسولات، فإنهن يفسدن الدين ويقَصِّرن الهمم. حدثنى عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن الله سيفتح عليكم بعدى مصر، فاستوصوا بقبطها خيرا، فإن لكم منهم صهرا وذمة، فعُفّوا أيديكم وفروجكم وغضوا أبصاركم».

ولا نتصور أن تمضى هذه الشهور الأربعة من كل عام دون حدوث مصاهرات بين رجال يسمح دينهم لهم بالزواج من نساء أهل الكتاب وتتطور العلاقة بينهما إلى اختلاط الأنساب، وامتزاج الدماء، وتلاقح الثقافات.

واجتمع تحت سقف البيت المصرى آباء عرب مسلمون وأمهات مصريات مسيحيات، وظهر جيل من الأولاد ينتمون بعمومتهم إلى العرب، وبخئولتهم إلى القبط، وفيهم التقت ثقافة هؤلاء وأولئك. ومع تكرار نظام الارتباع كل عام اتسعت دائرة الروابط والصلات بين العرب والمصريين، ثم مضى. الاختلاط إلى خطوات أبعد بعد أن توافد على مصر موجات عربية مهاجرة استوطنت مصر واحترفت الزراعة وتعلمت فنون الصناعة والحرف، وتعرب المصريون لغة ودينا، واستقرت الظاهرة الفريدة فى تاريخ مصر والمصريين: ظاهرة تمصير العرب، وتعريب المصريين. وغدت الديار المصرية تشهد مجتمعاجديدا تختلط فيه القبائل العربية مع أهل البلاد المصريين.

يحدد الأستاذ أبو سيف يوسف ـ وهو من طليعة المثقفين الأقباط ـ العوامل الرئيسة التى حسمت قضية استيعاب الهجرات العربية وامتزاج المهاجرين بأهل البلاد الأصليين فيما يلي:

أولا: ارتباط القبائل العربية بالأرض الزراعية، ودخولهم فى زمرة من يحرثون ويزرعون من أهل الريف. ففى زمن الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك أخذ العرب القادمون يتخلون بالتدريج عن سياسة الترفع عن الاختلاط بالأهالى والاشتغال بالزراعة. ومنذ المائة الأولى للهجرة كثر انتشار المسلمين بقرى مصر ونواحيها، وفى مستهل القرن الثانى اهتم الخلفاء الأمويون بتعزيز مواقع العرب فى ريف مصر ليواجهوا انتفاضات القبط التى بدأت أولاها فى الصعيد عام ١٠٧ هـ.

ومن التطورات السياسية التى عجلت بانصهار القبائل فى المجتمع المصرى ما حدث أيام العباسيين عندما أمر الخليفة المعتصم بإسقاط

العرب من الديوان وقطع أعطياتهم ، فاضطر العرب إلى الانتشار فى الريف والاختلاط بالمصريين والتزوج منهم ، وإلى الاشتغال بالزراعة والصناعة وغيرها من الأعمال التى كانوا يترفعون عنها ، وكان هذا الاختلاط مما ساعد عى انتشار الإسلام بمصر وتعريبها .

ثانيا : كان نظام «الموالي» من العوامل التى ساعدت على امتزاج العرب بالفلاحين ، ففى بيئة قبلية تتمسك بمفاهيم النسب ، كان على غير العربى إذا لم يسلم أن يرتبط بشخص أو جماعة ليجد مكانا له فى المجتمع . وساعد نظام الولاء على انتشار العربية وعلى توسيع التعريب ؛ لأنه أدى إلى الاندماج فى الجماعة العربية .

وقد سعت مجموعات من القبط الذين أسلموا إلى الإفادة من هذا النظام ، فارتبطت بالقبائل العربية وارتبط الولاء فى الأساس بالنظم السائدة بالفلاحة والأرض ، ولم يعد اصطلاح «عربي» مقصورا على العرب الذين ترجع أصولهم إلى شبه الجزيرة فحسب ، بل امتد ليشمل الفلاحين الذين انتسبوا إلى القباذل العربية . وقد أسهم هذا النظام فى إضعاف الحواجز الاجتماعية التى كانت تعرقل اختلاط العرب بالمصريين ، كما أدى إلى إسقاط حاجز الزواج بين العرب والفلاحين . وقد أدى استقرار بعض القبائل العربية على الأرض إلى ذوبان عناصر عربية عديدة فى كتلة أهل الريف .

ثالثا : إذا كان الريف المصرى المستودع الرئيسى لعملية التعريب ، فقد كان للمدن العربية الإسلامية أيضا دور مهم ، ونعنى بها الفسطاط والجيزة وقوص وأسوان ، فكانت بمثابة مراكز الاتصال الثابتة بين مصر وبين العمق العربى فى شبه الجزيرة . ومن ناحية ثانية كانت هذه المدن

مراكز الأسواق الرئيسية للتجارة، وفيها نشأت علاقات متشعبة اقتصادية ولغوية بين أهل الريف: مسيحيين ومسلمين. ومن ناحية ثالثة، فرضت هذه العواصم نفسها كعواصم للثقافة العربية الإسلامية.

وعلى هذا انتهى مآل الهجرات العربية التى ارتبط مجيئها بتعريب مصر، إلا أن الغالبية الكبرى من أبناء القبائل العربية خضعوا - فى الريف والمدن - لعملية حتمية من الاستيعاب والتمثل فى المجتمع. وإن العرب كقبائل وأفراد اختفوا بعد أن نقلوا دفعة كبيرة من دمائهم إلى شعب مصر، فكانت الهجرات العربية على مايرى جمال حمدان «دون مبالغة أو تهوين من شأنها: أهم وأخطر إضافة - ولا نقول بالضرورة تغير أو تعديل - إلى تكوين الدم المصرى برمته».

الإسلام يدخل قلوب المصريين

فى تضاعيف عملية الامتزاج الكبرى التى تمت بين العرب والمصريين، كان من الطبيعى أن يتسلل الإسلام إلى قلوب المصريين وئيداً. فلم يكن بحاجة إلى عصا تسوقه، أو قوة تفرضه على من لا يرغب، بل كان هناك الاختيار الحر والاقتناع الكامل. وفى الإمكان تتبع عملية الانتشار التدريجى للإسلام كما رصدها الدكتور شكرى فيصل فى كتابه «المجتمعات الإسلامية فى القرن الأول» من خلال ما جمع من أنباء الفتح وما تلاه من أحداث، وأول ذلك أن طائفة من الأسرى المصريين أخذهم المسلمون من القرى الثلاث التى انتفضت على الصلح، وهي: بلهيب، وخيس، وسُلطيس. فلماأغضب ذلك

الخليفة عمر ونادى نداءه: «لا فيء ولا عبيد» خُير هؤلاء الأسرى بين الإسلام والنصرانية، فمن أسلم فهو من المسلمين، له ما لهم وعليه ما عليهم، وإن اختار دينه خلوا بينه وبين قريته. فاختار الإسلام منهم كثير - على ما يذكر الطبرى - فكان إسلام هؤلاء الأسرى يمثل الدفقة الأولى التى انثالت بعد ذلك وشقت طريقها إلى الإسلام.

وإلى جانب هذه الدفقة الأولى، كانت هناك حركة فردية بين المفكرين فى تقبل الإسلام، فقد استجاب له كثيرون من الذين كانوا يحسون أعمق القلق فى حياة المسيحية ويعانون أقسى الآلام حين يرون أمام أعينهم، أو يشهدون فى أنفسهم، تطاحن فرقها، وتنازع مذاهبها، وألوان الاضطهاد الذى يذيقه بعضهم بعضا. ولعل هذا القلق والألم كان دافعا لهم إلى أن ينشدوا الحقيقة فى ميدان آخر، وإلى أن يفتشوا عنها فى هذا النطاق الذى عاشوا فيه.

ولربما أسلمت طائفة ثالثة كانت تأنف من الجزية، وترجو أن يكون لها فى هذه الجماعة ما لها، وعليها ما عليها. وكانت - بفعل ما كان من اضطهاد المقوقس لها - قد ضمُرت فيها عقيدتها الدينية واختفت فى أعماقها. فلما جاء الإسلام فاستثار القرابة والرحم، انقادت له. وفى هؤلاء الذين يجمعون بين ضمور العقيدة والتطلع إلى الحياة الأسمى يقول الأستاذ بتلر: «فقد رأوا أن الإسلام يساويهم بالفاتحين فى شرف محلهم، ويجعلهم إخوانا فى كل شيء، يسهم لهم فى الفيء ولا يفرض عليهم الجزاء، فكان فى ذلك باعث قوى لكثير منهم على الدخول فى الإسلام، لا سيما وقد طحن المقوقس عقيدتهم طحنا، وحطم يقينهم باضطهاده».

ولم يكن القبط وحدهم فى مصر، وإنما كان الروم، ومنهم قلة مسالمة دخلت فيما دخل فيه القبط من الذمة، وقد أسلم بعضها أو كثير منها لأنها كانت تعيش فى لون من الغربة النفسية دفعت بها إلى أحضان الإسلام. وفى وسعنا - يقول الدكتور فيصل - أن نضيف إلى ذلك عديدا من جند الروم الذين كانوا هزموا فى المعارك والذين كانوا يمثلون الدرجات الدنيا فى المجتمع قد استجابوا للدعوة الجديدة التى كانت تبدلهم بالخوف أمنا، وعن هؤلاء الروم الذين أسلموا يقول حنا النيقوسي: «قوم ارتدوا عن دينهم المسيحى ودخلوا فى دين البهائم».

ويختتم الدكتور فيصل متابعته لانتشار الإسلام فى مصر من خلال الملاحظات الآتية:

١ - كان انتشار الإسلام بين الروم أكثر منه بين القبط، ومرجع ذلك تلك الغربة النفسية التى كانت تلف حياة الروم بعد انتصار الإسلام.

٢ - شمل انتشار الإسلام كل طبقات المجتمع القبطي: كان فيه فريق من رجال الدين الرهبان، ومن المفكرين العقلاء، ومن الأشراف، ومن العامة. فلم يقتصر على طبقة معينة.

٣ - كان انتشار الإسلام يتناسب مع انتشار القبائل المهاجرة، فكثرة الوافدين من العرب كانت تتيح ألوانا من الصلات، صلات التقارب أو صلات التراحم. وليس للإسلام من دعاة إلا أهله، وكثيرا ما كانت تؤدى هذه الصلات إلى الإسلام.

٤ - كان انتشار الإسلام فى المدن أكثر منه فى القرى، بسبب انتشار المسلمين فى المدن، وقدرة أهل المدن على الاستجابة للدعوات

المختلفة. على حين يظل المجتمع الريفى منعزلا بعض العزلة عن هذه التيارات التى تأخذ سبيلها إليه فى بطء وحذر. ويبدو أن الإسلام لم ينتشر فى ريف مصر إلا فى مطلع القرن الثانى حين هاجر إلى مصر أمواج من القبائل القيسية وسكنت الحوف الشرقي، فجاورت الريف وخالطته وحملت إليه عدوى الإسلام.

٥ ـ مضى انتشار الإسلام بطيئا، ثم استفاض فى كثرة بعد ذلك، ثم توقف أخيرا أمام هذه القلة التى حفظت كل مقومات الأقباط لغة ودينا، واكتسبت فى معارك النضال الطويل قدرا من المقاومة أتاح لها الصمود حتى اليوم.

ثلاثة بواعث لانتشار الإسلام

أما الأستاذ أبو سيف يوسف فى كتابه «الأقباط والقومية العربية» فيحصر سبب انتشار الإسلام بين غالبية المصريين فى ثلاثة بواعث:

أولا: الثابت تاريخيا أن كثيرين من قبط مصر قد دخلوا الإسلام طوعا أو عن اقتناع منذ مجيء جيش عمرو بن العاص، فيذكر الأسقف حنا النيقوسى الذى شهد الفتح أن جيش المسلمين كان يرافقه مصريون كفروا بالمسيحية واعتنقوا ديانة عمرو.

والمؤرخ بتلر، الذى لم يدخر وسعا فى الإشادة بصلابة القبط فى الدفاع عن عقيدتهم الدينية، قد توصل إلى نتيجة مؤداها أن ثمة بواعث قوية قد حدت بالقبط إلى أن يمتزجوا بالإسلام كل الامتزاج فى معيشتهم ودينهم، من ذلك: الكراهية العميقة للحكم البيزنطي،

ثم هناك البلبلة الفكرية التى استشرت فى أرجاء الإمبراطورية البيزنطية بسبب الصراعات الحادة بين المذاهب المسيحية. ويضيف باحثون آخرون إلى ذلك: ما لمسه أهالى البلاد من أن حكم المسلمين قد بدا أخف وطأة من نير الرومان، وأنه طرأ تغير كبير إلى الأفضل على أحوال القبط فى السنوات الستين التى أعقبت الفتح، وتمتع الأقباط بالحرية الدينية رزحوا تحت نقيضه فى زمن الرومان، وعاد إلى العقيدة الأرثوذكسية عدد لا يحصى من أبنائها، كما سمح للقبط ببناء كنائس جديدة. ولم تظهر من قبَل الحاكمين العرب سياسات عامة أو إجراءات خاصة يمكن أن تفسر على أنها موجهة إلى إجبار القبط على ترك عقيدتهم.

ثانيًا: ثمة قطاع من الأقباط تحول إلى الإسلام بدافع الرغبة فى تحقيق المساواة بينهم وبين المسلمين، وذلك بما يرفع عنهم وطأة التمييز فى بعض المجالات السياسية والاجتماعية، والتى تنسب إلى ما يسمى «عهد عمر» ويتضمن شروطًا مجحفة على المسيحيين. ثم إن بعض القيود التى استحدثت فى العصور المتأخرة جعلت المسيحيين يطمعون فى مساواة المسلمين، وأن الأقباط كانوا عرضة أحيانا لبعض المضايقات التى حملت بعضهم على ترك دينهم.

ثالثًا: أما المجموعة الثالثة من العوامل التى أحاطت بدخول كثير من القبط فى الإسلام فترتبط بالنظم الضريبية، فقد أبقى العرب على وسائل الروم فى تدوين الدواوين وجمع ضرائبهم، وإن كان العرب أخف وطأة فى جباية الضرائب. ومصدراها الرئيسيان هما: الجزية على المسيحيين، ومقدارها ثابت، والخراج على الأرض، ويدفعها

المسلم والقبطي، وتتغير حسب درجة الفيضان . ولكن مع تعاظم أعداد الداخلين فى الإسلام أخذ مقدار الجزية يتناقص باطراد، ومع تزايد حاجة الدولة إلى المال تشدد بعض الخلفاء فى أساليب الجباية حتى فرضت الجزية على الرهبان، وكان من أثر هذا أن اعتنق الكثيرون الدين الإسلامي. وفى مواجهة هذا التشدد، تتابعت صور المقاومة القبطية، وتراوحت أشكالها بين الهروب من القرى وبين المقاومة العنيفة. وفى هذا لاحظ بعض المؤرخين أن ثمة تلازمًا بين اتباع سياسات مالية متشددة من قبل بعض الحكام العرب وبين اضطرار تحول القبط إلى الإسلام.

انـدماج وتواصل

يرى بعض المؤرخين المعـاصرين أن الفتح الإسلامى لمصر، ومـا صاحبه من هجرة عربية مكثفة، قطع ما بين مصر وتاريخها القديم، وأن العـرب بعـد أن دخلوا فى تكوينهـا العـرقى غيـروا من نمطهـا الجنسي، وأن المصريين الذين اعتنقـوا الإسلام واختلطوا بالعرب، انقطع انتماؤهم إلى العنصر المصرى الأصيل. وبناء على هذا التصور لم يحتفظ بالصفات الوراثية القديمة سوى الأقباط، ولذا فهم يمثلون الامـتـداد التـاريخى والجنسى للعـصـور الفرعونية، وأنهم السـلالة المباشرة لقدماء المصريين، وأن تراثهم ما هو إلا امتداد لتراث أولئك الأجداد.

والواضح أن هذه الآراء تقـوم على أســاس نظرية نقــاء العنصـر والاحتفاظ بصفاته الوراثية يعبدا عن الاختلاط أو الامتزاج بدماء جنسية أخرى، ومن شأن هذه النظرية ـ لو صحت ـ أن تقسم المصريين

المعاصرين إلى عنصرين بشريين لكل منهما أصوله وجذوره : أحدهما امتداد للعنصر المصرى القديم، والآخر مخلط، تكون نتيجة الامتزاج بالعناصر البشرية التى وفدت مع الإسلام، بدءًا من العرب ومرورا بالشعوب والأجناس التى توالت من بعدهم، كالتركى والشركسى والأكراد والألبان والمغاربة والسودان. . . إلخ. ولنا أن ندرك خطورة هذا التقسيم السلالى (الإثني) على النواة الصلبة للوجود المصري، والمتمثلة فى التماسك الاجتماعي، والوحدة الوطنية، والامتداد التاريخى الذى لم ينقطع عبر العصور. فهذه الركائز التى تتفرد بها مصر، يرى فيها بعض المؤرخين معجزة حقيقية لهذا الشعب، ليس لها نظير فى سجل البشرية، وأنها أساس قوته واستمراره على محفة التاريخ طوال العصور، بينما خرجت من التاريخ أمم لم يتوافر لها ما توافر لمصر من تماسك واندماج.

وإذا صحت نظرية نقاء العنصر على أجناس وأقوام تعيش فى أدغال إفريقيا أو أحراج أستراليا أو كهوف الإسكيمو أو فى مستوطنات الهنود الحمر، فإن هذا التصور لا يصح بالنسبة لمصر، البلد الذى تنفتح شواطئه الشمالية على البحر المتوسط ملتقى الحضارات القديمة، وتتمدد سواحله الشرقية على البحر الأحمر الفاصل، بل الجامع، بين آسيا وإفريقيا، ولم تشكل صحاريه الغربية أو الشرقية عائقًا أمام حركة الشعوب المجاورة. كما يمثل النيل شريانه فى عمق القارة الإفريقية، وعلى تخومه الشمالية الشرقية تقع سيناء: الحضّانة التى اجتذبت العناصر السامية فبل أن تأخذ طريقها إلى دلتا النيل. كذلك من الصعب تصور عزلة المصريين الأوائل عن شعوب البحر التى استوطنت جزر البحر المتوسط وسواحل آسيا الصغرى،

ثم اجتذبتها خصوبة الأرض المصرية، فسبحت إليها واتخذت منها موطنًا.

كل هذه الحركات البشرية كان لها أثرها فى تكوين النمط الجنسى المصرى منذ أقدم العصور ومن قبل عصر الأسرات. وإذا كان من المتفق عليه أن الهجرة العربية الإسلامية هى أضخم الهجرات، إلا أن هذه الكثافة لم تغير من التركيب الأساسى لجسم السكان ودمائهم، لا لسبب سوى أن العنصر العربى الوافد يشترك فى أصوله ومكوناته القاعدية مع العنصر المصري. وإلى هذا يذهب جمال حمدان، حيث يستعرض حركة الهجرات التى توالت على مصر بحكم موقعها المتوسط وموضعها الغني، فكانت إقليم جذب لا طرد. ومن هنا، تعرضت لطوفان الموجات البشرية المختلفة سواء الهجرات الاستيطانية، أو الغزوات الحربية، أو التسلل السلمي. وفى أغلب الأحوال، كانت هذه الموجات من أصول جنسية لا تختلف أو تبتعد كثيراً عن العرق المصرى الأساسي، وإن علينا ـ علميا ـ أن نفترض أن كل عنصر دخل مصر وترك أثرًا فيها ـ مهما تضاءل ـ فهو داخل فى تكوينها النهائي؛ لأن الدم ـ كالمادة ـ لا يفنى ولا يستحدث من العدم. والمصريون فى التحليل الأخير والمحصلة النهائية هم ببساطة: كل أولئك الذين استقروا بمصر، وذابوا فيها، وأقاموا عليها بصفة دائمة ونهائية.

فرعونية الدم

ويستعير جمال حمدان من المفكر الفرنسى جوستاف لوبون عبارته التى يصور فيها أثر الهجرات الوافدة فى التكوين المصري، ونصها:

«شعوب مختلفة غزت مصر، ولكن البلاد استطاعت مع ذلك أن تهضم هؤلاء الفاتحين جميعًا، محتفظة فنونها ولغتها وعقائدها، فلم يتح لأولئك الغزاة أن يؤثروا فيها، فيما عدا العرب، الذين فرضوا عليها دينهم ولغتهم وفنونًا أجنبية، وحتى مع ذلك، فقد ظلت مصر رغم ذلك فرعونية الدم». ذلك أن حيوية مصر البيلوجية وطاقتها الامتصاصية النادرة - في رأى حمدان - هي المسئولة أو صاحبة الفضل في امتصاص كل موجة وافدة، وصهرها في بوتقتها الأم، فليس في مصر جزر ولا جيوب ولا أسافين بشرية داخل جسم السكان. وبالتالي، لا تكاد توجد فروق مهمة أو حادة في الشكل أو البنية أو الملامح بين أجزاء البلد الواحد، وكانت كتلة وتماسك الجنس البشرى المصرى تحتوى كل المؤثرات الدخيلة فتذيبها، وتمنع تجمدها أو تحجرها كأجسام غريبة في نسيجها.

ورغم كل التحفظ الواجب، ومع الاحتفاظ بعنصر النسبية، كانت المؤثرات التاريخية تؤدى إلى تغير بطيء جدا بقدر ما كان طفيفًا جدا في التركيب الجنسي، فهو تغير على جرعات ضئيلة للغاية من النوع التدريجي الوئيد، وليس فجائيا أو كبيراً. ولعل الاستثناء الوحيد هو التأثير العربي، فقد جاء ضربة واحدة وبجرعة ضخمة نسبيا. ولكن سواء كان وئيداً أو سريعًا، فإن ذلك التغيير الطفيف أمر منطقي، فالشعوب دائمًا أكثر تغيراً من الأوطان، والجنس أكثر مرونة من الأرض. الأول أقرب إلى المتغيرات، والثانية أقرب إلى الثوابت. وليس هناك شيء - كما يؤكد جمال حمدان - اسمه النقاوة الجنسية عمومًا، بل إنه يمكننا أن نذهب إلى حد القول بأنه ما من شعب مهما كان منعزلا أو معزولا، إلا وهو مختلط بدرجة أو بأخرى، دون أن

يعنى ذلك بالضرورة التخليط أو «السلاطة» الجنسية . ومصر ـ وإن لم تكن شعبًا مختلطًا بالقطع ـ إلا أنها عرفت الاختلاط يقينًا . وليس من الدقة العلمية فى شيء أن نصور مصر بوعاء جامد يتشكل كل من دخله بشكله ، فليست هناك أطر ثابتة إلى هذا الحد كأنها الأقفاص الحديدية . وإذا كان النمط المصرى قد امتاز بالثبات لا شك ، فذلك بالمعنى العريض ، ولا يرادف الجمود المطلق .

المحصلة النهائية ، أن مصر لم تكن حصانًا تغير عليه عدد من المسافرين فى أثناء الرحلة ، أو عددًا من الركاب فى أثناء سباق التتابع ، وإنما استمر راكبه ـ المصرى القديم والمعاصر ـ هو الأول والأخير والوحيد طوال الرحلة دون أن يتغير ، وقصارى ما تغير فيه هو رداؤه ولونه وجلده ـ ربما ـ وبعبارة أخرى ، فإن التكوين الأساسى لمصر يظل كما كان منذ مصر القديمة ، أما الإضافات الدموية الثانوية بعد ذلك ، فلا تغير جوهره ، وإن عدّلت بعض لونه . فمصر القديمة والمعاصرة ، إذن ، جنسيا وغير جنسي ، جسم متجانس أساسًا ، دون أن يرادف هذا التجانس : النقاوة الجنسية .

وحدة العنصر المصري

ويكاد علماء تاريخ الأجناس القديمة (الأنثروبولوجي) والجغرافيا البشرية يجمعون على وحدة العنصر المصرى منذ ما قبل التاريخ حتى وقتنا الحالي ، وهم فى ذلك لا يفرقون بين مصرى مسلم ومصرى مسيحي ؛ لانعدام الفروق بينهما ، وتماثل الصفات الوراثية بدرجة يصعب معها التمييز بينهما . وقد أثارت هذه الحقيقة انتباه عميد

الاحتلال البريطانى «لورد كرومر» فقال: إن حالة التمييز الوحيدة أن أحدهما يذهب إلى المسجد، والثانى يتوجه إلى الكنيسة. وقد أورد محمد العزب موسى ومقتبسات من أقوال العلماء تؤكد استمرارية جنسية للمصريين منذ أقدم العصور إلى اليوم، الأمر الذى يستقيم معه القول - حقيقة لا مجازًا - بأن المصريين الحاليين هم أحفاد أجدادهم الفراعنة الذين أقاموا على ضفاف النيل أعرق وأعظم حضارة عرفتها البشرية فى فجر يقظتها.

- يقول أدولف إرمان، وهرمان رانكه: «فى مصر وحدها دون غيرها نستطيع أن نرى نفس الناس طوال خمسة آلاف سنة، لم تتغير فيها اللغة إلا مرة واحدة، وتغيرت فيها الديانة مرتين، وجنسية الطبقة الحاكمة عدة مرات. ولكن الظروف الطبيعية للحياة بقيت ثابتة لا تتغير، وهذا لم يحدث فى التاريخ إلا فيما يتعلق بالشعب المصري.

ويضيف المؤلفان: لا يزال الشعب المصرى الذى سكن مصر القديمة يعيش بروحه الآن فى السكان الحاليين لهذه البلاد. لقد غيرت تقلبات التاريخ لغة البلاد ودينها، ولكنها لم تستطع أن تغير من مظهر هذا الشعب القديم. إن مئات الآلاف من اليونان والعرب الذين استقروا فى البلاد لم يحدثوا فيها أثرًا؛ لأن هذه البلاد امتصتهم. وقد يكون من المحتمل أنهم تمكنوا من إحداث أثر فى المدن الكبيرة التى استمروا فيها مجتمعين، ولكنهم فى سائر البلاد - وخاصة فى الوجه القبلى - لم يحدثوا الأثر إلا ضئيلاً جدا، فالفلاح الحالى لا يزال يشبه أجداده الذين عاشوا منذ خمسة آلاف سنة تمام الشبه مع فارق بسيط،

هو أن الفلاح الحالى قد أصبح يتكلم العربية ويدين بالإسلام أو بالمسيحية . والذى يتجول الآن فى قرية مصرية بالوجه القبلى يستطيع أن يرى أشكالاً من الناس يخيل للمرء أنها خرجت لساعتها من الرسوم والصور التى تغص بها المقابر المصرية القديمة .

● وهذه الحقيقة نفسها يؤكدها الأب «دريوتون» بقوله : يتحتم علينا الاعتراف بأنه يوجد فى مصر منذ الدولة القديمة طابع مصرى خالص ، ظل برغم الغزوات التى حدثت فيما بعد على دفعات متعددة ، حافظًا لكيانه إلى نهاية العصر الفرعوني ، بل وما يزال يعثر عليه إلى يومنا هذا .

● كما يؤكد ذلك «برودريل» بقوله : من الواضح طوال الستة آلاف سنة الأخيرة أو يزيد ، أنه لم يكن هناك أى تغيير ملحوظ فى مظهر جمهرة المصريين ، فالبراريون وأهل نقادة (المصريون الأقدمون) ومصريو الأسرات الأولى والفلاحون الذين نراهم يعملون فى الحقول اليوم ، كلهم من نفس النمط القاعدى المتوسطي .

● ويلاحظ «كون» أن التغيرات التى لحقت بالنمط الجنسى فى أى جزء من أوروبا خلال السنوات الخمسمائة الأخيرة ، كانت أكبر منها فى مصر خلال خمسة آلاف سنة .

● ويقول «إليوت سميث» : منذ ثلاثة عشر قرنا اكتسبت مصر اللغة العربية والدين الإسلامي ، دون أن تخضع لأى تغيير ملحوظ فى الصفات البدنية لشعبها .

● ويقول «جان يويوت» : إن الرجال المصوَّرين فى جبانة منف

وفلاحي اليوم يشكلون فى مجموعهم نموذجًا بشريا مشتركًا . ومن ثم، يحق لنا أن نتحدث عن وجود سلالة مصرية متميزة : القامة متوسطة ، والجسم قوي ، والأنف عريض مستقيم ، والشفتان غليظتان ، والشعر مجعد أسود ، والبشرة تختلف درجة سمرتها باختلاف خط العرض . ولم يتغير أصل السلالة المصرية تغيرا ملموسا بفعل الهجرات التاريخية من الهكسوس إلى الإغريق إلى العرب إلى استجلاب أسرى الزنوج والليبيين والآسيويين فى الدولة الحديثة على ضفاف النيل ، ثم إقامة الحاميات الأجنبية أيام الفرس .

وتلاحظ فى جميع أقوال هؤلاء العلماء أن أحدًا منهم لم يقصر هذه الاستمرارية على جماعة مصرية دون جماعة، بل يشترك المصريون جميعًا فى الصفات الوراثية مع تنوع أديانهم .

بعد هذا التأصيل العلمى لوحدة الجنس المصرى وثباته رغم اختلاطه بعناصر وافدة، ماذا بقى من نظرية نقاء العنصر المصري ، التى يسعى أصحابها إلى استبعاد العنصر المسلم من السبيكة البشرية المصرية بعد اختلاطه بالعرب؟

يبقى أن نستلفت النظر إلى ظاهرة اجتماعية مماثلة ، وهى أن العنصر القبطى لم يتحرج عن الاختلاط بالشعوب المسيحية المجاورة طوال العصر المسيحي ، فالعلاقات الدينية والاجتماعية والثقافية توثقت مع هذه الشعوب بدءاً من رحلة العائلة المقدسة إلى مصر ، ثم مجيء مرقص الإنجيلى إليها سنة ٦٨ ميلادية مبشرا بالمسيحية ، ثم توالى الاتصالات والعلاقات بين كنيسة الإسكندرية ومركز الديانة

المسيحية فى فلسطين، ووفود كثير من المسيحيين الشرقيين إلى مصر فراراً من الاضطهاد فى بلادهم ودخولهم فى الجسم المسيحى المصري. كذلك، لا يمكن تصور انعدام المصاهرة والاختلاط بين المسيحيين فى مصر والمسيحيين فى الشام وفلسطين، وخاصة أنهم يلتقون حول مذهب واحد، هو اليعقوبية أو الأرثوذكسية، وهى ظاهرة لا تزال مشهودة فى علاقات المصاهرة بين الأسر المسيحية فى مصر والأسر المسيحية، فى لبنان وسوريا وفلسطين وغيرها من البلدان. فتحت راية المسيحية امتزجت دماء الأقباط بدماء شعوب مسيحية أخرى، مثلما امتزجت دماء المصريين المسلمين بالعرب تحت راية الإسلام. وعندئذ يصير من التعسف إبعاد المصرى المسلم من النمط الجنسى المصرى القديم، وقصره على المسيحى المصري؛ فكلاهما اختلط، وكلاهما ظل محتفظًا بصفاته الوراثية على النحو الذى أوضحه بإسهاب العلامة جمال حمدان فى كتابه الموسوعى «شخصية مصر».

التوجهات الثقافية والحضارية

إلا أن الخطأ الأكبر يتمثل فى اختصار الوجود العربى فى دائرة ضيقة وعنصرية، وهى دائرة السلالات العرقية والتغيرات الدموية، وتجاهل الأثر الأكبر لهذا الوجود العربى والمتمثل فى دائرة أوسع وأشمل وأعمق، وهى دائرة التوجهات الثقافية والحضارية والاجتماعية وغيرها. وهى توجهات خرجت بمصر من دائرة الانغلاق والفقر الفكرى والثقافى إلى رحابة الحضارة العالمية. وشارك فى صنعها المصريون جميعًا، المسلمون والمسيحيون. وفى

هذه النهضة الجديدة تجاوز المصريون الخط الفاصل بين الانتماء الدينى والولاء الوطني، وساروا جميعا نحو هدف واحد هو الارتقاء بمصر والنهوض بها من الكبوة التى أصابتها أكثر من ألف عام، لتتقدم شعوب المنطقة وتساهم فى بناء الحضارة. فكيف استطاع الأقباط أن يتجاوزوا المتغير الدينى ويشاركوا إخوانهم المسلمين فى مسيرة النهضة؟

يحدد الأستاذ أبو سيف يوسف في دقة متناهية وضع الأقباط في هذا المجتمع الإسلامى والعربى الجديد. فقد انطلق الأقباط من حقيقة تقول إنهم يشكلون أقلية دينية، إلا أنهم لا يشكلون بحال أقلية عرقية سلالية (إثنية) أو لغوية، وهو الأمر الذى ميز الشعب المصرى بدرجة عالية من التماسك أو التكامل أو الاندماج الاجتماعي. وهو يرى أن ظاهرة الاندماج ارتبطت تاريخيا - وفى المحل الأول - بعملية تعرب المصريين، بمسلميهم ومسيحييهم، أى باتخاذهم اللغة العربية أداة تخاطب ومصطلح ثقافة. فلم يكن التعريب، فى حالة مصر، عملية استبدال دماء بدماء أدت إلى استبدال تكوينهم البشرى بتكوين آخر، بل هو عملية جمعية ساهمت فى تكوين مصر العربية خلال القرون الأربعة أو الخمسة الأولى للهجرة.

أما عن الهجرات العربية فإن «أبو سيف يوسف» يعود بها إلى عصور سحيقة حتى من قبل أن يسمى سكان شبه الجزيرة عربًا، فقد كانوا على اتصال بشعب مصر منذ زمن يسبق عصر قيام الأسر الفرعونية. وإن عروبة مصر ليست ظاهرة حديثة ولا ترجع إلى عهد الفتوح الإسلامية، بل ترجع إلى ما قبل التاريخ المسجل المكتوب،

ولكن حتى إذا لم نشأ القول بأن المصريين القدماء «عرب»، فإن عوامل الامتزاج قد عملت بينهم ولم ينقطع اتصال مصر بالعمق العربي بعد ذهاب آخر أسرة فرعونية ومجيء الغزاة الفرس والإغريق والرومان، بل نمت العلاقات العربية المصرية. ويذهب بعض الباحثين إلى أن القرون الخمسة التى سبقت ظهور الإسلام كانت بمثابة المرحلة التحضيرية لتعريب إقليم الشرقية فى مصر.

وإلى جانب أن عامل الهجرات العربية هو أهم عوامل تعريب مصر، إلا أن ثمة عوامل أخرى لعبت دورها فى التمهيد لامتزاج العرب بأهل مصر، مثل نظامى الارتباع والضيافة، وقد مثلا أول نزول لجنود الجيش العربى إلى الريف. فقد كان من حق العرب - بمقتضى معاهدة الصلح - أن ينزلوا ضيوفًا على المصريين لمدة ثلاثة أيام، إلا أن التطورات السياسية التى طرأت على دولة الخلافة انتهت بالمهاجرين العرب إلى أن يتوزعوا على الطبقات والفئات الاجتماعية المختلفة، ويمثلون الأرستقراطية العربية التى اتجهت إلى تملك الأرض. ومع اتساع رقعة الإسلام فى مصر نمت فى ظل العهد الأموى واتجهت إلى الصعود فى المجتمع فئات من المصريين المسلمين (الموالي) فكان منهم الملاك والكتاب والفقهاء، ومنهم من اشتغل بالتجارة والعلم، فضلا عن الباعة والصناع وأصحاب الحرف، وبقى الفلاحون على الدوام بكتلتهم الكبيرة قاعدة الهرم الاجتماعي. ثم لعبت الدولة العربية الإسلامية - وذلك بما تملك أى دولة فى العادة من قوة القسر والإرغام - دورها فى عملية دمج القبائل التى استقرت على الأرض الزراعية بمجتمع الفلاحين، فلم يتردد الولاة فى أن يقمعوا بقوة الغالبية العظمى من أعمال التمرد أو الشغب التى وقعت من القبائل.

ويصل الباحث فى النهاية إلى هذه النتيجة، وهى أن دخول العرب الذين استقروا فى البيئة الطبقية للمجتمع المصرى ـ خاصة فى الريف ـ أدخل العرب بالضرورة. وفى النهاية، فى حلبة الصراعات الاجتماعية الدائرة فى المجتمع، فكان لا بد أن تتولد بالضرورة مواقف تفرض التكامل بين المصريين والعرب، تمليها ـ فى النهاية ـ اعتبارات العصبية الضيقة، أو الأصول السلالية. وهكذا، لم ينته العرب المهاجرون إلى أن يصبحوا طبقة مغلقة تفصلها عن المصريين امتيازاتها وخصائصها الإثنية.

أعمق الموجات الثقافية

ومن الباحثين من يضع ا المؤثرات الإسلامية قدم المساواة مع لمؤثرات الفرعونية فى تكوين شخصية مصر، ومن هؤلاء الدكتور عبد المجيد عابدين، فيقول: إذا تأملنا تاريخ مصر كله، وجدنا أن أعمق الموجات الثقافية التى قادت الشخصية المصرية وتجاوبت وإياها قد انبعثت من موجتين بشريتين عظيمتين: أولاهما، هجرة المصريين القدماء الذين عمروا وادى النيل، وأسسوا الحكم الفرعوني. والأخرى، هجرة العرب المسلمين منذ الفتح العربى بقيادة عمرو بن العاص.

ويقول: لقد نزحت إلى مصر ـ قبل الفتح وبعده ـ جماعات شتى من الشعوب السامية والحامية والهندوأوروبية، هاجر بعضها لأغراض سلمية، ودخلوا مصر مسالمين أو مؤيدين للحركات الوطنية فيها، كمعظم الساميين الذين نزحوا إليها، ودخل بعضها الآخر غزاة

محاربين كما صنع الفرس واليونان والرومان وغيرهم من الشعوب الهندوأوروبية . ومع هذا استطاعت الشخصية المصرية أن تعبر سريعًا بين هذه الحشود، وأن تتمثل بعض ما يلائمها من آثارهم، دون أن يكون لهم فيها من الصدى العميق المتجاوب ما كان لهاتين الهجرتين .

لم يستجب الشعب المصرى فى تاريخه كله إلا للغتين : اللغة المصرية القديمة، واللغة العربية . فعلى الرغم من تعدد أسماء اللغة المصرية القديمة من : هيروغليفية إلى هيراطيقية، إلى ديموطيقية إلى قبطية، لم تكن فى حقيقة الأمر إلا لغة واحدة فى صور متطورة وخطوط مختلفة، ولذلك تعددت أسماؤها. ولقد عرفت مصر صنوفًا عديدة من اللغات : اليونانية والسريانية والفارسية والتركية وغيرها من اللغات التى كان لها بعض المجال فى مصر قبل الفتح وبعده، ولكنها كانت عابرة سبيل، فلم يكن لها من الأصداء الشعبية ما كان للمصرية القديمة أولا، ثم للعربية التى انتشرت بعد الفتح وتغلغلت بين فئات الشعب وتجاوبت والشخصية المصرية، وقضت على جميع ما سواها من اللغات . ولم يستجب الشعب المصرى فى تاريخه إلا لثقافتين : الثقافة المصرية القديمة، والثقافة العربية . ولقد كان لليونان والفرس والسريان والترك وغيرهم صنوف من المعرفة عبرت على مصر، وعاشت فيها فترات تتفاوت طولا وقصراً، وتركت فيها آثاراً لا سبيل إلى إنكارها، ولكنها لم تؤثر فى الشخصية المصرية بعمق إلا عندما تسربلت فى مسوح مصرية قديمة، أو فى ثوب عربي . فلم يكن لها من عمق التأثير والتجاوب، وهى فى شكلها السافر، ما كان لهاتين الثقافتين .

وإذا عرفنا أن مصر الفرعونية ذاتها قد ارتبطت مع العروبة الأولى (السامية) بوحدة الأصل الثقافي والحضارى المشترك، وأن الروابط بينها وبين العروبة الأولى منذ أقدم العصور، كانت وثيقة ومستمرة، أدركنا ما كان للعروبة قديمها وحديثها من أعمق الأثر فى الشخصية المصرية وثقافتها وحضارتها. وهناك عوامل مشتركة بين الحضارتين أدت هذا التجارب وإيجابية التأثير عوامل إنسانية عامة وأخرى ذاتية خاصة، وثالثة قومية أو وطنية. فكما أن العرب حملوا معهم رسالة إنسانية تهدف إلى إسعاد البشر جميعًا، هى رسالة الإسلام، فكذلك أدرك المصريون الأوائل أن على عاتقهم رسالة إنسانية، لا بد أن يحملوها إلى شعوب العالم. وعبروا عن ذلك حين جعلوا أوزيريس المعلم الأكبر، يعلم المصريين كيف يزرعون الحب،، ويسن لهم القوانين، ويعلمهم تبجيل الآلهة، ثم يتم رسالته بالطواف بالأرض كلها لينشر الحضارة بين شعوبها دونما ما حاجة إلى استعمال السلاح، وإنما كان يستميل معظم الشعوب إليه بالإقناع والتهذيب، ويسحرهم بجميع ألوان الموسيقى والغناء.

الجانب الروحى للثقافة القديمة

وكما عمقت حضارة الإسلام الجوانب الروحية والخلقية والتجريبية، فكذلك صنعت الحضارة المصرية القديمة؛ عمقت الجانب الروحي، وأكدت أن المرء سوف يحاسب بعد موته عما أتاه بميزان العدالة، وإلى جانب هذا لم يغفل المصريون الأوائل الناحية العقلية والتجريبية فى المعرفة. وكما وسعت الحضارة الإسلامية العربية جوانب الحياة على اختلافها، فكذلك كانت الحضارة المصرية القديمة

تتجلى فى شتى المظاهر والنواحي، ولم تكن - كما يظن بعض الباحثين - ذات طابع متشائم أو حزين، وقد نجد فى آدابها شواهد على حياة مقبلة على الرخاء والترف والبذخ، كما نجد فى بعض أركانها بواكير الزهد والتنسك، وقد نقرأ أدبًا يتسم بالجد والصرامة، كما فى أدب الترغيب والترهيب، إلى جانب أغان مرحة تعبر عن عواطف العشاق من الفتيان والفتيات.

ويلاحظ الدكتور عبد المجيد عابدين أمرًا لا يقل شأنًا عما سبق، ذلك هو العمل السياسى أو الوطنى نفسه. فكما أن الفتح العربى لقى تجاوبًا عظيمًا من الشعب المصري، فكذلك وجدت السلطة المصرية القديمة تجاوبًا من الشعب، وليس بصحيح أنه كانت هناك عزلة بين الحياة الرسمية والحياة الشعبية فى العصور الفرعونية، خلافًا لما رآه الأستاذ العقاد.

وكان كثيرًا مما وصل إلينا من آثار مصر وآدابها القديمة ثمرة اتصال وثيق بين السلطة والشعب، ولقد أقبل الشعب على كثير من المعتقدات والمبادئ التى رسمها الكهنة والملوك؛ لأنها أتاحت لعامتهم ما يعود عليهم بالخير. ولم تلبث هذه المعتقدات والمبادئ أن تسربت إلى الآداب الشعبية، وأصبحت على مر الزمن من سماتها الظاهرة، وانتقلت إلى أهل الريف والقرى، وصارت من جملة التراث الشعبي. ولا أدل على أن العمل السياسى أو الوطنى كان من العوامل المهمة التى أتاحت للثقافة الفرعونية ثم العربية الإسلامية أن تتغلغل فى نفوس العامة، من أن الشعب المصرى فى عهود سيطرة الفرس واليونان وغيرهم لم يستجب للثقافات الأجنبية التى جلبها هؤلاء الغزاة إلى مصر، لما كان من عزلة تامة بينه وبينهم.

لقد استمرت عهود السيطرة الأجنبية أكثر من أحد عشر قرنًا، ومع ذلك لم تجد صدًى عميقًا فى نفوس المصريين، ولم يستطع حملة الفكر الهيللينى فى تلك العهود أن يقدموا لأهل مصر - فيما قدموه من ألوان الفكر - رسالة يمكن أن نصفها بأنها «إنسانية عالمية»، ثم لم تكن طبيعة الفكر اليونانى مما يتلاءم والفكر المصرى القديم الذى كان مرآة صادقة للشخصية المصرية، بفطرتها الروحية الصافية، وشاعريتها المتوثبة، ووعيها لمفهوم الحياة.

لم يستجب أهل مصر للثقافة اليونانية، وظلت الروح الوطنية تشتد فى نفوس الشعب. وكانت المسيحية ألمع واجهة اجتذبت من حولها فئات الشعب للإفصاح عن ورح المناوءة للروم، صادفت فى المصريين فطرة دينية عميقة؛ فاعتنقوها فى حماس وقوة، واتخذوا منها متنفسًا للتعبير عن الخفقات الوطنية المنطوية، وصنعوا باسمها كل شيء يقال فى مجال القول والعمل.

* * *

نستخلص من كل ما تقدم أن تيار الثقافة المصرية لم يشهد انقطاعا بين المرحلة المصرية القديمة، والمرحلة الإسلامية العربية، وإنما شهد تدفقًا مستمرا ظهرت ملامحه فى جميع حلقات مصر التاريخية، بما فيها الحلقة القبطية. وأن التوجه العربى الإسلامى لم يكن مفترق طرق بين مصر الفرعونية ومصر العربية، بحيث سلك بعض المصريين الطريق العربي، وحافظ آخرون على المضى فى الطريق المصرى القديم.

أبدًا لم يحدث انفصام أو انقطاع أو شرخ فى السبيكة البشرية المصرية، وإنما حدث مزيد من التماسك والاندماج والحركة الواعية نحو مجد مصر وعظمتها، وهو ما يجب أن نحافظ عليه، ونعض عليه بالنواجز فى مواجهة الحملات الخبيثة التى تعمل على تفتيت مصر والمصريين وتقسيمهم إلى أصول بشرية مختلفة، وأعراق متنافرة.

شخصية مصر الإسلامية

لما وقعت الفتنة الكبرى - بعد اغتيال الخليفة عثمان بن عفان - توالى ظهور الأحزاب السياسية، والفرق الكلامية، والنحل المذهبية، من عثمانية وأموية وعلوية وخوارج وشيعة ومعتزلة ومرجئة، ودارت بينها جميعًا حروب أصابت المجتمعات الإسلامية بجروح دامية. وكان من الطبيعى أن تتجه أنظار هذه الأحزاب إلى مصر؛ درة العالم الإسلامى وأغنى بلاده، لعلها تجد عند أهلها سندًا وعونًا. فماذا كان موقف مصر من هذه الدعوات الوافدة، والنحل الغريبة عنها؟

هنا، تجلت شخصية مصر التى تكونت عبر آلاف السنين، وتغلب الطابع المصرى المفطور على الاتزان والوسطية على دعاوى التطرف والشطط والمغالاة، ونأت مصر بنفسها عن الانزلاق فى هذا المستنقع الذى كانت تحركه بواعث عنصرية وقومية ليست لها صلة بمصر من قريب أو بعيد، وبقيت مصر مستمسكة بفهمها الواعى للإسلام كما تلقته من نبعه الصافى الأصيل، لائذة بوحدة الجماعة الإسلامية،

رافضة الانحياز إلى فئة أو جماعة ترفع شعارات براقة لتخفى وراءها أطماعًا وأحقادًا وكيدًا للإسلام، وتفريقًا لأهله.

كان الخوارج أول من حفر لنفسه موطئًا لقدم في الديار المصرية، وفى فسطاطها نشأ أول تنظيم سرى للخوارج، نواته الثلاثة الذين تعاهدوا على اغتيال الأقطاب الثلاثة: على ومعاوية وعمرو بن العاص، ظنا منهم بأنهم سبب الشقاق الذى أصاب المسلمين، وأن بالخلاص منهم تعود إلى الأمة وحدتها، فكشفوا عن سذاجة فى التفكير وضحالة فى إدراك الأسباب الحقيقية التى أدت إلى اندلاع الفتنة.

وفى اللحظة الموعودة فى صلاة فجر السابع عشر من رمضان عام أربعين هجرية انقض الثلاثة على فرائسهم فى الكوفة ودمشق والفسطاط، ولم ينجح منهم فى مهمته سوى «ابن ملجم» قاتل الإمام على بن أبى طالب، وأما ثانيهم فقد أخطأت ضربته رأس معاوية وأصابت عجيزته، وأما ثالثهم الذى تربص بعمرو، فقد تدخل القدر فحبس عمرواً عن الخروج إلى الصلاة، وأناب عنه صاحب شرطته «خارجة بن حذافة» فكانت النيابة عنه فى الصلاة والممات معًا، وعندما اكتشف القاتل خطأه صاح: «أردت عمرواً وأراد الله خارجة»، فصارت مثلاً.

وكان للعلوية فى مصر أثر منذ هبط إليها «ابن سبأ» وأخذ يبث فيها دعواه الخبيثة، يحرض الناس على الثورة ضد «عثمان» ثم يدعو إلى «علي» وينسج حوله نسيجًا استمد خيوطه من يهوديته القديمة، ومن أفكار الفرس الأقدمين عن نظرية الحق الإلهي، وأن عليا هو صاحب

هذا الحق، وأن بيته هو البيت الملكى الأجدر بالسلطان، على عادة الفرس منذ البيت الساساني.

وجاءت الأموية إلى مصر لتكتسح الخوارج والعلوية وتستخلص مصر من هؤلاء وأولئك. ثم ينتفض ابن الزبير على الأمويين، ويجد له فى عرب مصر شيعة وأنصاراً، ولكن الأمويين يقتلعونه من مصر كما اجتثوا رأسه وهو متشبث بأستار الكعبة.

وتدور على الهوامش المصرية حروب ومعارك بين أولئك الطامعين، ولكنها لا تنال من جسمها الصلب المتين، ولا تترك على وجهها أكثر من خدوش لا تصل إلى حد الشروخ. وعلى امتداد التاريخ الإسلامى ترى مصر هدفًا للنحَل الوافدة، وترى مصر أيضًا تأبى أن تنصاع لما هو مخالف لطبيعتها وطبعها وطريقتها العتيدة فى التدين.

وعندما يعكف الباحثون على تفسير هذه الاستقلالية المصرية، فإنهم يذهبون فى ذلك مذاهب شتى، ولكنهم يلتقون فى النهاية عند هذا الطابع الذى يميز حياة الإسلام فى مصر عن حياته فى غيرها من الأمم، كما ميز مسيحيتها عن مسيحية الرومان والبيزنطيين، ويعزون ذلك إلى خصوصية التدين المصرى منذ بدء التكوين، وسيطرة الشعور الدينى على حياة المصريين على اختلاف العصور، ومع مختلف الأديان، الأمر الذى جعل «هيردوت» أبا التاريخ يقول: «إن المصريين أشد البشر تدينًا، ولا يعرف شعب بلغ من التقوى درجتهم فيها، فإن صورهم بجملتها تمثل ناسًا يصلون أمام الرب، وكتبهم - على الجملة - أسفار عبادة ونسك».

وإذا كان لمصر - على مدار التاريخ - شخصية واضحة القسمات، بادية السمات، راسخة العرق، ثابتة الخطو، بعيدة عهد بالتحضر، قديمة الأثر فى التمدن - فإن تلك الشخصية المصرية حقيقة يعرفها العلم فيما يدرس من شأن الجنس، والوراثة، والبيئة، ويقررها البحث حين يحايد ولا ينحاز، وليس القول بتلك الشخصية الاستقلالية زخرفًا من الكلام، وسحراً من البيان، أو اندفاعًا من عواطف قومية، ولكنها أصول ثابتة انعكست على حياة المصريين الاجتماعية والسياسة والعملية فى شكل «وحدة» جامعة، وهو ما أشار إليه المستشرق الفرنسى «جوستاف لوبون» فى عبارته: «ندرك الآن السبب الذى أدى بالجنس المصرى - بعد تكونه البطيء، فى عزلة عن الدنيا بحاجزى الصحراء والماء - إلى بلوغ الوحدة القوية، التى استخرجها من أصله الغامض، واحتفظ بها إلى أيامنا هذه ظاهرة على أبنائه ظهورها على جرانيت معابده، وقبوره القائمة من آلاف السنين».

الاستقلال الوطنى والدينى

وحين يتحدث المؤرخ «بتلر» فى كتابه «فتح العرب لمصر» عن تشبث المصريين بعقيدتهم المسيحية، ورفضهم المعتقدات المستوردة من روما وبيزنطة وخلقدونية، فإنه لا يجد تفسيراً لكراهة المصريين للنحَل الوافدة، سوى أن المصريين يضعون الاستقلال الدينى فوق الاستقلال الوطنى (!!) بل يصل إلى ما هو أبشع، وهو «أنهم لم يعرفوا الاستقلال القومى قط، ولعلهم لم يحلموا يومًا بمثل ذلك الأمل، وأما الاستقلال فى أمر الدين فقد ناضلوا من أجله، وجاهدوا فى سبيله، لم ينثنوا عن ذلك فى وقت من الأوقات منذ مجلس

خلقدونية. وكانوا حريصين على بلوغ ذلك الغرض، لا تغفل عنه قلوبهم ولا يحجمون عن بذل كل شيء فى سبيله مهما يعظم، ذلك هو سر حوادث تاريخهم جميعًا».

ويتصدى أستاذنا الجليل الشيخ أمين الخولى لهذا الاعوجاج فى تفسير شدة تدين المسيحيين المصريين، على حساب الاستقلال القومي، فيوجه الحديث إلى بتلر مخاطبًا: إنها شنشنة لقومك (الإنجليز) معروفة، فسَّرْتُم بها تاريخنا تفسيرًا ضالا مشوهًا مغرضًا مفسدًا، تزعمون به أننا لم نعرف هذا الاستقلال القومى منذ آخر عهد الفراعنة، ولم نحكم أنفسنا منذ ذلك العهد... ولم... ولم... مما افتريتم وجاراكم فيه سُزَّج منا، لعلهم حتى اليوم وبعد ذهاب ريحكم يرددونه. وإنكم بذلك لتنكرون خاصة ظاهرة جلية من خصائص هذه البيئة المصرية، وتلك هى صلاحيتها بتكوينها المتحيز المتجدد المحوط بفواصل من الصحراء والماء، لأن تكون مهدًا للوجود المستقل، والدولة المتفردة، والقومية الشاخصة. وبهذه الخاصة الفطرية الطبيعية، وما تكسبه لأهلها من خصائص معنوية وفنية، تهيأت لقيام الدول ذات الشخصية فى إبّان قوة الأمم التى اتصلت بها، وناوأت أثينا وروما وبيزنطة وبغداد والأستانة. وكانت متفردة عالية الرأس فى كل الإمبراطوريات التى وصلت حبلها بها، وظلت على مسرح التاريخ لم تختف منه أبدًا، بل لم تسقط عليها ظلال ما تقلل الأضواء على قسماتها ومميزاتها. فحديث التاريخ الصريح: إن مصر بيئة استقلال بطبيعتها، وأهلها بذلك من أكثر الناس شعورًا لهذا الاستقلال. وليس هذا العناد القبطى الذى وصف «بتلر» منه روائع فى المقاومة، إلا لونًا من قوة تلك الشخصية التى لا تتجزأ، ولا ينفصل منها جانب عن جانب.

سذاجة وتغرير

ويفند الأستاذ الخولى دعاوى بتلر عن غير المصريين الحاكمين بمصر، ويرى فيه سذاجة وتغريراً بالسامعين؛ لأن تلك العهود لم تعرف القومية الإقليمية، والوطنية المحلية، بل كانت تطويها وتشملها عصبيات من غير هذا اللون، هى فى الأعم الأغلب عصبيات دينية أو سياسية، تلونها أمة غالبة حيثما كانت ظروف الحياة المادية ومواصلاتها تتيح لأمة واحدة أن تحمل شعلة الحضارة، حتى يضعف ساعدها فتتلقاها أمة أخرى. فلم يقف المؤرخ «بتلر» بقوله هذا على شيء من سر تاريخ المقاومة المصرية للمذهب الدينى الوافد، ولعله بعد وقفتنا هذه أمام زعمه الذى زعم، يطمئن إلى ما نجده من تفسير لهذه الظاهرة الدينية سواء فى العصر القبطى أو فى العصر الإسلامي، وما كان فى العهدين من مقاومة شديدة للنحل الوافدة من بيزنطة وبغداد. فقد قاوم المصريون المسيحيون البدعة الدينية التى ابتدعها «هرقل» عن المشيئة الواحدة، واقتضاهم الشعور الدينى أن يقاوموها إلى حد الاستشهاد، حتى غلبوا «هرقل» على أمره. وبعد أكثر من مائتى عام تتجدد المحنة، فإذا الليلة أشبه بالبارحة، فهذا «المأمون» شبيه «هرقل» فى فرض مسألة اعتقادية هى قضية خلق القرآن، ويأبى المصريون المسلمون الانصياع إلى نحلة غريبة عن فهمهم الصحيح للإسلام، ولو كلفهم الإباء أن يجودوا بأرواحهم، وها هو «يوسف البويطي» يساق إلى بغداد على بغل، وفى عنقه وقدميه أغلال الحديد، فلا يتراجع ولا يساوم، وعندما يطلب منه والى مصر أن يقول بضع كلمات تحرره من العذاب وتكفيه مشقة الرحيل، يرفض «لأنه يقتدى بى مائة ألف لا يدرون المعنى، ولأموتنّ فى حديدى هذا حتى يأتى قوم يعلمون أنه قد مات فى هذا الشأن قوم فى حديدهم».

ويموت البويطي في سجن بغداد، في القيد والأغلال، كما مات أخوة من قبل تحت سنابك خيل «دقلديانوس» ومحارق «هرقل». وأنت في الحالين تقف مشدوهًا أمام هذه الخصيصة المصرية في رفضها للنحل الغربية وتحديها للمذاهب المتطرفة.

يقول الأستاذ أمين الخولي: لو نظرت النظرة الجامعة إلى موقف مصر من مقالات الفرق الإسلامية على اختلافها، لخرجت بهذه النتيجة، وهي: عدم الإقبال في إسلام مصر على هذا الجدل الاعتقادي، وعدم رواج النحل الإسلامية في مصر، مهما تشتد عناية المسلمين بها في غير مصر، ومهما ينصبون للتأليف فيها والخصومة حولها، ومهما تساعد الظروف العملية السياسية أو غيرها على رواج هذه النحلة أو الفرقة أو المقالة، ومهما تظفر فعلا بشيء من ذلك في مصر تحت تأثير العوامل المختلفة - فإنها لا تلبث أن تفتر، ولا تترك من الانفعال بها ما يسم مصر بسمة خاصة، في المذاهب الكلامية، أو يجعلها وطنًا خاصا لفرقة من الفرق، كما كانت إيران مثلا مركز التشيع قديمًا وحديثًا، أو كانت اليمن موطنًا خاصا للزيدية، أو ما إلى ذلك. بل لا تلبث مصر أن تلوذ بالمعنى الجامع، والكلمة الشاملة، أي بالجوهر الخالص، واللُّباب من الدين. وكأنما تحاول سعة أفقها الديني دون الاندفاع الاد، والتحزب المتطرف لفرقة دينية دون فرقة.

إحياء النزعات القومية

إن البحث في خصوصية التدين المصري، لا بد أن يقودنا إلى المقارنة بين مسلك المصريين المسلمين ومسلك شعوب أخرى جرفتها التيارات المنحرفة إلى أغوار بعيدة عن الإسلام. فإذا نظرت في تاريخ الفرس بعد إسلامهم فسوف تصدمك ظاهرة إحياء النزعات القديمة

التى كانت قائمة فى الديار الفارسية منذ عصور قديمة ، فإذا بها تطل برأسها وتنفض عنها أكفانها ، لتبعث من جديد فى مسوح إسلامية ، بعضها ترك من بواعث شعوبية للتحقير من شأن العرب ، والإطاحة بالحكم العربى الذى قوض دعائم الحكم الساساني ، وبعضها ترك أرضية دينية ومذهبية استغلت مبدأ الحرية الدينية الذى جاء به الإسلام ، فنهضوا تحت هذا الستار لإعادة دس الزرداشتية والمانوية والمزدكية فى تضاعيف الفكر الإسلامي ؛ فكانت تلك المذاهب الجديدة فى مظهرها ، القديمة فى مضمونها ، مثل : الراوندية والبابكية والخرمية والإسماعيلية ، وغيرها من عشرات النحل الشاذة التى حفلت بها كتب الفرق .

وكان عماد هذه الفرق ناس دخلوا الإسلام ظاهراً ، وهم يبطنون هدمه ، وما كان دخولهم إلا ليفسدوا على المسلمين دينهم ويبثوا فيه الزندقة ، وهم الذين أشار إليهم الإمام ابن حزم فى كتابه «الفصل» بقوله : «والأصل فى خروج أكثر هذه الطوائف عن ديانة الإسلام ، أن الفرس كانوا من سعة الملك وعلو اليد على جميع الأمم ، وجلالة النظر فى أنفسهم حتى أنهم كانوا يسمون أنفسهم الأحرار ويعدون جميع الناس عبيداً لهم . فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهم على أيدى العرب ، وكانت العرب أقل الأمم عند الفرس خطراً ، تعاظمت الأمور وتضاعفت لديهم المصيبة ، وراموا كيد الإسلام بالمحاربة فى أوقات كثيرة ، ففى كل ذلك كان يُظهر الله الحق ؛ فأظهر قوم منهم الإسلام واستمالوا أهل التشيع بإظهار محبة آل البيت ، واستشناع ظلم «علي» رضى الله عنه ، حتى أخرجوهم من الإسلام» .

وما هى إلا عشية وضحاها ، حتى نشأت فى قلب الدولة العباسية دول فارسية الطابع واللغة والشعور ، تأنف من حكم العرب ، وتتغنى

بعظمة قورش وقمبيز ، وتشيد بمجد كسرى وإيوانه . وهو ما تراه فى قصيدة «مهيار الديلمي» التى يشدوا بها مطربنا الكبير محمد عبدالوهاب، ويقول فيها :

قومى استولوا على الدهر فتى   ومشوا فوق رءوس الحقب
عمموا بالشمس هاماتهم   وبنوا أبياتهم بالشهب
وأبى كسرى على إيوانه   وهل فى الناس أب مثل أبي!

وأنت إذا نقبت فى تاريخ مصر الإسلامية ، فلن تجد مثل هذه النزعات القومية الحادة أو الحركات التى تدعو إلى الانقلاب على الإسلام ، أو الإطاحة بنظام الحكم العربي ، وهو ما ينبغى أن يذكر فى سجل أجدادنا الأقباط الذين تعايشوا مع إخوانهم العرب المسلمين فى إطار المواطنة الكاملة لكل من ينتمى إلى مصر ويشرب من نيلها ، ويتغذى من خيرها ، ويموت فى ترابها . ولن تجد أثرًا لهذه التيارات المتطرفة فى عنصريتها ، الشاذة فى معتقداتها . وستجد مصر قد وجهت كل جهودها نحو بناء الحضارة العربية التى احتضنت سواعد المسلمين والأقباط ، وستجد مصر تمضى فى طريق النضوج الحضارى لتمثل مكانتها المتميزة فى محيط العالم الإسلامى بعد أن توافرت لها كل عناصر النضوج من صلاحية المناخ ، وروح الألفة والسماحة بين أبنائها ، والمنعة من العوارض والنزلات المتطرفة ؛ حتى غدا الكيان المصرى قلعة شامخة من القلاع الكبرى الساهرة على مقدسات العروبة والإسلام .

الوحدة مع أهل الجماعة

فى كتابه «مصر الإسلامية : مقوماتها العربية ورسالتها الحضارية» يرصد الدكتور إبراهيم أحمد العدوى أوليات هذا النضوج، وهو محافظة مصر على الروابط القوية مع أهل الجماعة الإسلامية، والسير على نهجها الذى يحث على الوحدة، ونبذ كل ما من شأنه إثارة الشقاق والنزاع. وقد حدد معالم هذا النهج القويم، ووضعه موضع التنفيذ: صحابة رسول الله الذين أجمعوا كلمتهم عقب وفاة النبى الكريم على مبايعة «أبى بكر» خليفة لرسول الله، واجتياز المشكلة الخطيرة الكبرى التى واجهت الأمة الإسلامية الفتية، وضربوا المثل العملى على أن إجماع الكلمة هو الصراط المستقيم، والملاذ الآمن من شرور الفردية والأنانية، والعاصم للنفس من الشطط والهوى.

وظل أهل الجماعة بذلك حماة التطور السياسى للدولة الإسلامية وتأييده بقوة العقيدة، وإنها لذلك مبرأة من الخطأ بقوة الإجماع، عملا بقول الرسول الكريم فى حديثه الشريف: «لا تجتمع أمتى على ضلالة». وتصدى أهل الجماعة بذلك لخصومهم من الخوارج والشيعة الذين اتخذوا لأنفسهم آراءً خاصة فى الخلافة. وتمسك أهل الجماعة بجوهر عقيدتهم والقائل بأن الأمة تسير فى تطورها بخطوات مباركة، وصار أهل الجماعة بذلك مدرسة الوعى الإسلامى السليم القادر على أن يهدى العامة سواء السبيل.

وسلكت عقيدة أهل الجماعة طريقها إلى مصر على النمط المتين منذ الفتح الإسلامي، ووجدت استجابة قوية من جميع أهلها، وغدا لمصر - بفضل ارتباطها بأهل الجماعة - مقياس حساس، كشف لها جميع الآفات التى تصيب مراحل النضوج، وأتاح لها جميع أسباب

الانطلاق السليم نحو استكمال مقوماتها الإسلامية والعربية .

أما الظاهرة الكبرى فى تاريخ مصر الإسلامية ـ كما يقول الدكتور العدوى ـ فهى ازدهار الحياة العربية فيها ، وتفانى المصريين فى خدمة الحضارة العربية ونشر رسالتها ، ويرجع السبب فى ذلك إلى سرعة امتزاج العرب الوافدين بسكان البلاد ، وظهور جيل جديد صار الحارس الأمين على المجتمع الناشئ وتنمية تقاليده ، ودعم أوتاده . ومع تدفق سيل القبائل العربية إلى مصر وكثرة تصاهرها مع المصريين ، صار العرب يعيشون تمامًا بين المصريين فى المدن الكبرى وصميم الريف . وأدت التطورات السياسية في عاصمة العباسيين إلى شدة امتزاج العرب بالمصريين ، فصاروا يعملون فى الصناعات والحرف التى يتقنها المصريون ، وضعفت حدة العصبية القبلية ، وحل محلها الانتماء للوطن ، والشعور بالمواطنة ، وأحس الجميع أنهم أبناء وطن واحد وأن الروابط تجمع بينهم فى السراء والضراء .

ولم تلبث الأحداث أن زادت من انصهار العرب والمصريين ، ليس نتيجة التزاوج فحسب ، ولكن بسبب الإجراءات التى أسقطتهم من ديوان العطاء . واشترك الجميع ـ مصريون وعرب ـ فى النهوض بمستوى بلادهم الاقتصادي ، ورفعة شأنها فى منظومة العالم الوسيط .

* * *

وفى استمرارية البناء والتقدم والوحدة والاندماج الاجتماعي، ونبذ الأفكار الهدامة والدعوات الشاذة ـ يكمن سر التواصل التاريخى الذى حفظ لمصر بقاءها ووجودها طوال العصور.

ثورات الأقباط

في غياب المعرفة بحقائق التاريخ، والجهل بطبيعة الشخصية المصرية، يحلو للبعض أن يصف الفتح الإسلامى بأنه كان احتلال، وأن يصف الوجود العربى بأنه كان استعماراً (!!) وليس أشد ظلماً من اتهام الإسلام بإكراه أحد على اعتناقه، وقد جعل إسلام المكره باطلا. وليس أبعد عن الإنصاف من اتهام الشعب المصرى بقبول الإسلام عنوة، فالشعب الذى يمثل الدين محور حياته منذ نشأته الأولى ليس بالذى يقبل أن يفرض عليه دين قهراً. والمصريون الذين تمسكوا بالمسيحية واستشهدوا في سبيلها بعد أن صمدوا فى وجه روما وبيزنطة، لا يستساغ اتهامهم بأنهم أرغموا على اعتناق الإسلام. وإذا كان سجل الكنيسة المصرية حافلا بذكرى الشهداء الذين فضلوا الموت على الإذعان لقهر الرومان، فإن هذه السجلات ـ منذ الفتح الإسلامى ـ خالية من وقائع القهر والإكراه. ولقد كان فى إمكان المصريين ـ لو أرادوا ـ إبادة الطلائع الأولى للفتح العربي، ولم يكن

عددهم يزيد على أربعة آلاف، ولكنهم لم يفعلوا، بل وقفوا من جيش الفتح موقف التأييد والمعونة، ولم نسمع عن معركة واحدة دارت بين العرب والأقباط، حتى تم للمسلمين النصر النهائى بفضل مؤازرة أهل مصر الذين كانوا على علم ببواعث الفتح منذ معارك العراق وفارس والشام، وأن هؤلاء الفاتحين حملة دين جديد.

فهل كان أجدادنا الأقباط يستبدلون احتلال باحتلال عندما رحبوا بالعرب المسلمين؟ وهل يصح أن ننزع عنهم ميزة الوعى بحركة التاريخ، وفهم المتغيرات التى طرأت على العالم بظهور الإسلام، وأنهم سيكونون آمنين على دينهم وعقائدهم تحت راية الفاتحين الجدد؟ وقد ترامى إلى مسامعهم نبأ الحريات الدينية التى ظفر بها نصارى الشام عشية الفتح (!!).

إننا لم نسمع فى تاريخ الأمم الحرة عن شعب رحب بقاهريه وغزاته، فما بالنا نرضى الدنية لأجدادنا، ونلصق بهم - ظلمًا - هذه التهمة الشنيعة: تهمة الإذعان للاحتلال العربى والاستعمار الإسلامي(!!) وهى تهمة تدحضها تعاليم الإسلام، وقد جاءت صفحته ناصعة نقية من المذابح والقهر والإكراه، بل كانت بردًا وسلامًا وتحريرًا للمصريين من قهر الرومان، وخلاصًا لهم من التدخل الغاشم فى شئون العقائد المسيحية. ولقد جاء الفاتحون المسلمون فأعلنوا من أول يوم مبدأ الحرية الدينية، ليس للأقباط فقط، ولكن لكل من يشاركهم العيش على أرضها من اليهود والروم المسالمة والنوبة والسريان والأحباش. وكفوا أيديهم عن المسألة الدينية برمتها، ولم تعد المسألة الدينية ميدانًا للصراع الطائفى مثلما حدث فى

عصور الرومان، وترك لرؤساء الأديان تنظيم شئون أتباعهم وإدارة كنائسهم، وترك للأساقفة والرهبان حرية اختيار رئيسهم دون تدخل من الدولة. ولم يكن ذلك ليحدث إلا إذا كان الحكام الجدد يؤمنون إيمانًا مطلقًا بحرية العقائد، ويحترمون حق الإنسان فى التعبد على النحو الذى يريد، واختيار زعامته الروحية بملء إرادته.

ولقد فطن حكام مصر الإسلامية إلى أهمية الروح المعنوية للشعب الذى يشكل الدين نواة مكوناته الأولى، وكان الدين مبعث حضارته القديمة، فاكتفوا من الشئون الداخلية بمرتبة السيادة وملحقاتها، كالجيش والقضاء والسياسة الخارجية، وتركوا لأهل البلاد إدارة شئونهم. وكانت تلك سياسة متبعة فى الدول ذات الحضارة القديمة وصاحبة الخبرة فى الأنظمة الإدارية، وقضت عليهم الحنكة السياسية بعدم المساس بهذه الأنظمة حتى لا يتعطل دولاب العمل، فشغل الأقباط هذه المراكز الإدارية، وحلوا محل الروم، ووصل بعضهم إلى مناصب عليا. وفى هذا ما يدل على أن نظرة الحكام المسلمين لم تكن فى يوم من الأيام هى نظرة الجيش المزهو بالنصر لى شعب مقهور أو منبوذ.

وتاريخ العالم القديم والحديث حافل بالفظائع التى كانت تمارسها الجيوش الظافرة فى الدول المغلوبة، كإباحة البلاد أمام الغزاة البرابرة لنهب الأموال وهتك الأعراض، وتدمير دور العبادة. وليس فى سجلات الفتح الإسلامى ما يشير إلى وقوع حادث واحد من تلك الجرائم التى أدانها الإسلام بكل قوة، بل هناك ما يدل على احترام كرامة المصريين، ورفض الإساءة إليهم ولو كانت من أبناء العلية

الفاتحين. وتحضرنا قصة الشاب القبطى الذى فزع إلى الخليفة عمر بن الخطاب شاكيا من ابن الوالى - عمرو - الذى صفعه على وجهه لأنه تفوق عليه فى سباق، فاستبقاه الخليفة فى ضيافته إلى موعد قدوم عمرو فى موسم الحج ومعه ابنه، وطلب من القبطى أن يرد الصفعة إلى «ابن الأكرمين»، ثم توجه إلى عمرو مستنكرًا استعباد الناس أو إهانتهم وقد ولدوا أحرارًا.

ونحن نسمع من البداية صيحة عمر: «لا تجعلوا فيئًا ولا عبيدًا». وقد رفض تقسيم الأرض على الجند الفاتحين، وتركها لأصحابها يفلحونها، كما رفض استعباد أهل القرى الثلاث التى نقضت عهد الصلح، وانقضت مع الروم على المسلمين.

المشاركة الإيجابية لمصلحة المجتمع

لقد اتجه الفاتحون المسلمون إلى التودد إلى الأقباط من خلال المعايشة اليومية، والمشاركة الإيجابية فى كل ما يعود بالمصلحة على المجتمع، وساعدهم على ذلك أن الإسلام يبيح لهم مصاهرة أهل الكتاب وتبادل الطعام معهم، ونحن نعرف طبيعة المصريين فى احترام «العيش والملح» ووضعه فى مرتبة العهود والمواثيق التى لا يجوز الإخلال بها. وكل هذا خلق مناخًا للود والتآخي، ولا يمكن لمثل هذه العلاقة أن تقوم بين شعب مقهور وجيش استعماري، ولو كان الفاتحون مستعمرين كما يزعم المبطلون، ما كانوا يوقرون الرئيس الدينى والأب الروحى للأقباط (بنيامين) ولم يكن هناك ما يجبرهم على ذلك؛ لأن القوة كانت فى أيديهم بعد طرد الروم، لولا

شعورهم بتلك العاطفة الجياشة نحو مصر والمصريين، وتطبيقًا لوصايا الرسول بحسن معاملة الأقباط. وما إن سمع قائد الفتح من «سانوتيوس» عميد الأقباط بمحنة الأب بنيامين وهروبه إلى الصحراء فرارًا من بطش الروم، حتى أعلن منشورًا عاما فى جميع أرجاء مصر بأن الموضع الذى فيه بنيامين له الأمان والسلامة، وأن عليه أن يحضر آمنًا مطمئنا ليدبر حال بيعته (كنيسته) ويرعى شئون رعيته، ويعيد بناء الكنائس التى خربها الروم. وما هى إلا بضع سنين حتى بنيت كنائس جديدة فى نواح شتى، ومنها الفسطاط نفسها عاصمة الدولة الإسلامية الجديدة، وصار الأقباط أحرارًا فى اختيار رئيسهم، وصار ذلك مبدأ عاما يطبق على جميع الطوائف الدينية. ولا يمكن أن يصدر هذا التصرف عن استعماريين همج، بل صدر عن قادة متحضرين يحترمون جميع الأديان والمذاهب، وفى طليعتها دين أهل البلاد، وتوقير رئيس الكنيسة المصرية ووضعه موضع التجلة والتقدير. بل لاحظ بعض المؤرخين تعاطف الحكام المسلمين مع الأقباط الأرثوذكس فى مواجهة المسيحيين الملكانيين الذين كانوا على مذهب الدولة البيزنطية، فساعدوا الأقباط على استرداد الكنائس والأديرة التى استولى عليها الملكانيون فى أثناء حكم بيزنطة، كما استعادوا أبناء الكنيسة الأرثوذكسية الذين اجتذبتهم الكنيسة الملكانية حينا من الدهر. بل حدث فى عهد الوالى قرة بن شريك ـ كما يقول بيكر ـ أن ضوعفت الجزية على الملكانيين، وهو مظهر من ومظاهر التضييق الذى كانوا يمارسونه على الأقباط قبل الفتح، ولما تبرم أتباع المذهب الملكانى من عدم وجود بطريرك لهم منذ الفتح الإسلامي، أرسل الخليفة هشام ابن عبد الملك (١٠٥ ـ ١٢٥هـ) إلى والى

مصر عبد الله بن الحبحاب يأمره بتنصيب بطريك للكنيسة الملكانية وهو الأب «قزما» فكان أول بطريرك للملكانيين في مصر الإسلامية، ولم يعرف في تاريخ مصر الإسلامية أن ولاة الأمور فيها عارضوا في انتخاب أحد البطاركة ما دام الأساقفة والكهنة وعامة الأقباط يتبعون القوانين الكنسية في اختيار رئيسهم، باستثناء ما حدث من الوالى عبد العزيز بن مروان (٦٥ ـ ٨٦ هـ) حين أبطل انتخاب أحد البطاركة بعد أن علم أن البطريرك المتوفى كان قد أوصى بشخص غير الذى انتخب، وتم لأمير مصر ما أراد، فعين «إسحق» بطريركًا بدلا من «جرجة» المنتخب. وهذه الحكاية يرويها أسقف الأشمونيين ساويرس بن المقفع في تاريخه عن سير الآباء البطاركة.

الوفاق بين الحكومة والكنيسة

وتروى الدكتورة سيدة إسماعيل الكاشف في كتابها «مصر الإسلامية وأهل الذمة» الكثير من التفاصيل عن مدى التعاون والوفاق الذى نشأ بين هؤلاء الحكام ورؤساء الطوائف الدينية، وكيف كانوا يبادلونهم الود والاحترام حتى تسير الأمور في مصر بسلام، وكيف حرص هؤلاء الولاة على أن ينظموا العلاقة بينهم وبين هذه الرئاسات الدينية من ناحية، وأن ينظموا علاقات أهل الكتاب برئيسهم الدينى من ناحية أخرى. فكانت كل طائفة تنتخب رئيسها حسب قواعد وتقاليد معروفة ليقوم برعاية طائفته، وتنظيم العلاقات بين أفرادها داخل إطار الدولة، فكان الرؤساء الدينيون حلقة الاتصال بين الدولة وبين الطوائف الدينية في مصر. وحفظ لنا مؤرخوا مصر الإسلامية صورًا من التواقيع التى كانت تصدر عن حكام مصر لتثبيت انتخاب

هؤلاء الرؤساء الدينيين، وهذه التواقيع بلغة عصرنا عبارة عن قرارات تعيين الرؤساء الدينيين. وحددت هذه القرارات سلطات وواجبات بطريرك الكنيسة الأرثوذكسية الذى يعتبر الرئيس الدينى الأول؛ لأنه رئيس الأغلبية الأرثوذكسية، فهو مكلف بتنظيم الشئون الداخلية لجماعته، مثل الزواج والمواريث، وعليه أن يحدد مواعيد أعيادهم ومواسمهم، بالإضافة إلى الإشراف على شئون الأديرة والكنائس ومن بها من الرهبان والأساقفة والقساوسة وغيرهم من رجال الدين المسيحي، ويجب أن يرى صلاحية من يعين فى هذه الوظائف، وأن يكون منتخبًا من شعبه، ويجب عليه أن يسوس أمورهم على أكمل الوجوه، وأن يكون على معرفة تامة بأحكام الإنجيل، وأن يكون زاهدًا فى ملذات الدنيا. ولا يمكن لمثل هذه الأفكار أن تصدر عن جيش احتلال أو جماعة استعمارية (!!).

وتلاحظ الدكتورة سيدة الكاشف أن رجال الحكم فى مصر كان يهمهم استقامة الرؤساء الدينيين، وعدم تطرق الفساد إليهم، وعدم التهافت على المناصب الدينية حتى يضمنوا عدم وجود ثغرات أو خلل فى الجسم المصرى كله، خصوصًا أن أهل الذمة مصريون قبل أن يكونوا ذميين. وقد حدث أحيانًا اشتداد التنافس على منصب البطريركية، مما كان يدفع الطامعين فى تولى منصب البطريركية إلى الالتجاء إلى السلطة الحاكمة وكبار الأمراء ليضمنوا توليهم بقوة السلطة الحاكمة، مما كان يتعارض مع سياسة الدولة فى عدم التدخل فى عملية انتخاب البطريرك.

ولوحظ فى التواقيع الخاصة برئاسة أهل الذمة، حرص حكام مصر الإسلامية على النص على رعاية أهل الذمة، وأن هذه الرعاية

من شروط الإسلام، والوصية بأهل الكتاب عملا بالسنة المحمدية الشريفة، كانت أوامر الحكام تصدر لكافة النواب والمتصرفين بإكرام رؤساء أهل الذمة واحترامهم، وكان الولاة يحرصون على مخاطبة الرؤساء الدينيين باحترام ظاهر، وعلى استخدام ألقاب التشريف والتكريم فى مكاتبتهم، كما كانوا يراعون الألقاب الفخمة والشريفة مراعاة تامة فى ديباجات رسائلهم، وأورد «القلقشندي» فى صبح الأعشى بعض هذه الألقاب، فكان يقال لبطريرك الكنيسة المصرية الأرثوذكسية: البطريرك الجليل، القديس الخاشع، قدوة النصرانية. ويقال لبطريرك الملكانية: الشيخ، الرئيس، المبجل عماد بنى المعمودية، كنز الطائفة الصليبية. وكان يخاطب رؤساء اليهود بألقاب، منها: الشيخ، والجليل، والرئيس، والكافي، والمقرب، والحكيم، وتاج الحكمة، وثقة الملوك والسلاطين.

والحق أن حكام مصر الإسلامية فطنوا منذ الفتح العربى لمصر إلى قوة سلطان رؤساء أهل الذمة على رعاياهم، فلم يغفلوا هذا الرباط الروحى بينهم، ولا مسئولية الرؤساء الدينيين عن رعاياهم، ولذلك أسندوا إليهم - فى أوقات الحروب والفتن والأزمات الاقتصادية - مسئولية جمع المال من رعاياهم، وتدبير المال اللازم عند الضرورة. كما كان يتعين على هؤلاء الرؤساء أن يقوموا بردع رعاياهم إذا قاموا بفتن أو إخلال بالأمن.

البطاركة فى موقف حرج

ولا شك فى أن هذه الوساطة الإلزامية بين الحكام والأقباط كانت

تضع البطاركة فى موقف حرج بين سلطان الدولة الحاكمة، وبين حقوق رعاياهم المسيحيين، فالدولة حين تلزمهم بجمع الأموال فإنما ترهقهم بمهمة لا تدخل ضمن سلطانهم الروحي، وتضعهم كالدروع البشرية فى مواجهة جماهير غاضبة وساخطة. فإذا كان هناك قصور أو تهاون أو فساد فى جهاز الجباية، فإن من التعسف إقحام آباء الكنيسة ليقوموا بوظيفة الجباة، ومن المؤكد أن بعض الولاة كانوا يلجئون إلى وساطة البطاركة بعد أن تعددت انتفاضات الأقباط احتجاجًا على تزايد الأعباء المالية مما اضطرهم إلى الخروج من طور المقاومة السلبية إلى مرحلة المقاومة المسلحة. وقد تعددت هذه الانتفاضات على مدار قرن أو يزيد، بدءًا من سنة ١٠٧ هـ فى بعض قرى الدلتا والصعيد، ولكنها بلغت ذروتها فى ثورة أهل «البشمور» الذين كانوا يقيمون فى المنطقة الضحلة على ساحل الدلتا بين فرعى رشيد ودمياط، وعرفوا بغلظة طباعهم وحبهم للعصيان والتمرد منذ التاريخ القديم، وقد شجعتهم طبيعة المنطقة الغاصة بالمستنقعات والأوحال على مناوأة الدولة. وفى عام ٢١٥ هـ - زمن خلافة المأمون - أعلن أهل المنطقة الثورة بسبب كثرة الأموال التى فرضت عليهم والقسوة التى كانت تستعمل فى جباية الضرائب.

ولكن الأمر الذى استوقف أنظار الباحثين، أن ثورة البشمور شملت المسلمين والمسيحيين، فامتنعوا عن دفع الضرائب، وطردوا عمال الحكومة، وفشلت وساطات البطاركة - الأرثوذكس والملكانى - فى إقناع الثوار بالهدوء والسكينة، مما اضطر معه الخليفة المأمون إلى القدوم بنفسه إلى مصر والتفاوض مع الثوار، والطواف بكل أنحاء الدلتا للتحقيق فى شكاوى الناس من مظالم الولاة.

ولا شك أنه بعد مرور قرنين على الفتح الإسلامي، كان من الطبيعى أن يثمر الاختلاط بين العرب والأقباط ظهور أجيال جديدة من المصريين يجمعون بين الروح العربية والطبيعة المصرية، فقد انغمس الفريقان فى تيار الحياة الجديدة التى غيرت وجه الحياة الاجتماعية وخلقت قاعدة لوحدة المصالح فى السراء والضراء. ونمت المشاعر المشتركة بين الفريقين نموا كبيراً أدى إلى توحيد شعورهم بالظلم، فهبوا للتعبير عن سخطهم ولم يجدوا أى حرج فى إعلان غضبتهم الجماعية على الحكومة ورجالها دون أن يساورهم أى إحساس بالفوارق الدينية بعد أن جمعت بينهم الوحدة الوطنية. وهذا أهم ما نستخلصه من هذه الثورة. ولسوف تتطور عملية التلاحم والامتزاج حتى تصير كلمة (قبط) تعنى المصريين - مسلمين ومسيحيين - وحين أسقط الخليفة العباسى المعتصم العرب من ديوان الجند وقطع مرتباتهم، فقد العرب بذلك آخر امتياز لهم على أهل البلاد، وتم الاندماج بعد ذلك بين العرب والمصريين، وأصبح الكل مصريا عربيا؛ إذ إن المصريين تعربوا، والعرب تمصروا.

ونستخلص من تتبع ثورات المصريين، أن مسلك بعض الحكام فى الدولة الإسلامية لم يكن يسير وفق مبادئ العدالة الإسلامية، وجنح بعض هؤلاء الولاة إلى التعسف والمغالاة فى فرض الضرائب لتلبية حاجة الدولة المركزية إلى الأموال. وظهرت أول بوادر احتجاج الفلاحين المصريين ضد الخراج - أى ضريبة الأرض - والأعباء المالية المختلفة، وليس ضد الجزية بالذات، بعد الفتح العربى بنحو خمس وستين عاما - كما يقول ساويرس أسقف الأشمونين، وغيره من

المؤرخين المسلمين فى عهد ولاية عبد الله بن عبد الملك، إذ حدث فى أيامه الغلاء على أثر انخفاض النيل، وزاد الخراج على الأرض، فلجأ بعض المصريين إلى المقاومة السلبية، وذلك بالهروب من منطقة إلى أخرى حتى يفلتوا من دفع الضرائب، وحتى يتعذر على الحكومة ضبط عملية الجباية. لكن الحكومة تشددت فى قمع هذه الحركة، ولم تكن حركة الهروب - كما تلاحظ الدكتورة سيدة الكاشف - جديدة فى التاريخ المصري، فكثيراً ما كان الفلاحون يهجرون قراهم فى العصر البيزنطى فراراً من دفع الضرائب. ويتبين من الأوراق البردية العربية واليونانية والقبطية المعاصرة للوالى قرة بن شريك كيف نشط هذا الحاكم لقمع تلك الحركة التى تضر بالزراعة وتخل بالأمن، ولكنه كان يراعى العدل مع الحزم.

ملاحظات على الثورات

تبقى بعض الملاحظات التى يجب أن نضعها نصب أعيننا ونحن نتحدث عن ثورات القبط ضد ظلم الولاة.

وأول هذه الملاحظات، أن المسلمين كان يقع عليهم ما يقع على المسيحيين من جور، فالضرائب التى كانت تفرض على الأرض تعم المسلمين والأقباط معًا. ولم يكن كل الذين هربوا من أراضيهم الزراعية، أو ثاروا من المصريين المسيحيين فقط، وإنما كانوا من المصريين مسلمين ومسيحيين، ومن المصريين والعرب. وبعدما أصبح الخراج يفرض على الأرض بغض النظر عن دين مالكيها - أصبح العرب يثورون مع المصريين ضد الحكومة العربية.

وثانى هذه الملاحظات، التى تنبه إليها الدكتور قاسم عبده قاسم فى كتابه «أهل الذمة فى العصور الوسطى» أن المظالم التى وقعت على الأقباط لم يكن مبعثها الاضطهاد الديني، وإنما العسف المالي، بدليل أن المصريين المسلمين قد عانوا من هذه المضايقات بالقدر نفسه.

ولا يعنى اعترافنا بهذه المظالم التسليم بأن أهل الذمة فى مصر قد عاشوا حياتهم فى ظل اضطهاد متواصل، فإن هذا أبعد ما يكون عن الحقيقة، فقد عاش أهل الكتاب يتمتعون بكل حرياتهم الاجتماعية والسياسية، وارتفعوا في وظائف الدولة، وتولوا المناصب المهمة، كما نعموا بحرية تنظيم جماعاتهم داخليا تحت رئاسة يختارونها فى ظل روح الإسلام وسماحته مع أهل الكتاب.

وثالث هذه الملاحظات، أن ثورات القبط ضد المظالم المالية لم تكن حركات قومية بالمعنى الصحيح، أى لم يكن هدفها الانقلاب على نظام الدولة الإسلامي، وإنما كان هدفها ينحصر فى خفض الضرائب أو الهرب منها، وتنبيه السلطات المركزية إلى ممارسات ولاتهم المتعسفة فى مصر.

ورابع هذه الملاحظات، أن هذه الثورات كانت وقتية، بمعنى أنها كانت مرتبطة بظروف معينة، مثل انخفاض ماء النيل، أو وفود أحد الولاة الجبابرة يرى أن مهمته تزداد نجاحًا كلما أمعن فى جباية أكبر قدر من الأموال، دون مراعاة لظروف الأهالي. والدليل على ذلك أن هذه الثورات كانت تحدث على فترات متباعدة، وتندلع عندما تتهيأ ظروفها، ولم تكن سياسة ثابتة فى مسلك الأقباط تجاه الدولة، كما لم تكن سياسة ثابتة فى مسلك الدولة تجاه الأقباط، وأن مرد هذا

التعسف كان يرجع بالدرجة الأولى إلى شخصية الوالى ونصيبه من احترام مبادئ العدل، وقدرته على حسن التصرف. ويقال إن ثورة البشمور إنما تعود إلى سوء تصرف الوالى عيسى بن منصور، وقيل إن الخليفة المأمون سخط عليه وقال له: لم يكن هذا الحدث العظيم إلا عن فعلك، وفعل عمالك، حمّلتم الناس ما لا يطيقون، وكتمتمونى الخبر حتى تفاقم الأمر واضطربت البلد.

مبدأ المواطنة فى دستور المدينة

«الوحدة الوطنية» أصل من أصول التكوين المصرى العام، يضرب بجذوره فى التربة الطينية التى شهدت مولد الجماعة المصرية على ضفاف النيل، فكانت وحدتهم البشرية استجابة للوحدة الطبيعية التى جعلت من الوادى ودلتاه سهلا منبسطًا لا تحده موانع جبلية أو صحراوية أو بحرية. وعلى السهل المنبسط تطور الاتصال إلى اندماج وانصهار.

وكانت الزراعة، وما تستلزمه من تنظيم للمقننات المائية، مدعاة إلى ظهور أول حكومة مركزية لضبط حركة المجتمع فوق أرض اكتسبت صفة «الوطن». ولم يكن من المتوقع ظهور فكرة الوطن والشعب والدولة فى مجتمعات متحركة تنتقل من مكان إلى مكان سعيا وراء الكلأ والمطر؛ إذ ليس من طبيعة الترحال الدائم أن يسفر عن ظهور أى شكل من أشكال السلطة أو القانون أو الاندماج، وهو

ما يميز مصر وشعبها عن غيرها من الشعوب التى لم تأخذ بفكرة «الوطن» والمواطنة إلا بعد أن استقرت واكتسبت صفة الثبات .

والمفهوم الحديث للوحدة الوطنية المصرية ، ينصرف على الفور إلى وحدة المسلمين والأقباط . وكان للثورة الشعبية عام ١٩١٩ فضل إشهار هذا المفهو فى وجه الاحتلال البريطاني ، إلا أن هذا المفهوم القائم على التعددية الدينية ، ما هو إلا فرع من أصل قديم هو وحدة المصريين الأوائل واندماجهم فى جماعة وطنية من قبل أن تكون مسيحية أو إسلام . وما كانت استجابة المسلمين والأقباط لداعى الوحدة فى عام ١٩١٩ إلا من إحساسهم الأصيل بوحدة المصير ، وشعورهم بأنهم يعيشون فى وطن قد تتغير ديانته أو لغته أو أشكال حكامه ، وتبقى وحدة الأصل والصفات والتقاليد والعادات التى يصعب التمييز فيما بينها ، أو فرزها عرقيا وجنسيا . ولا شك أن سر بقاء هذه الصفات واستمراريتها إنما يرجع إلى صلابة المقومات الأصلية للكيان المصرى والتى صنعت منذ فجر الزمان الكيان المعروف باسم «مصر» .

والمتابع المتأنى للتاريخ المصرى يجد أمامه معطيات طبيعية وبشرية وتنظيمية وحضارية مستمرة ومتطورة صارت هى العناصر التكوينية للكيان المصرى التى تفاعلت فيما بينها ، ونشطت فى مواجهة التحديات الداخلية والخارجية .

لقد شغلت وحدة الكيان المصرى بال المفكرين قديمًا وحديثًا ، باعتبارها نموذجا فريداً فى تاريخ الدول والشعوب . ومن هؤلاء المفكرين المحدثين المستشار الدكتور وليم سليمان قلادة ، وقد أصدر

مؤخراً كتابه الجديد «مبدأ المواطنة» رصد فيه عدة مقومات للكيان المصري، أهمها: الأرض ـ البشر ـ المشروع ـ الدولة ـ الحضارة ـ التعددية الدينية. وفي هذا كله يتمثل التاريخ، أي مسار الحركة المصرية في مختلف اتجاهاتها. ويعنينا من هذه المقومات مبدأ التعددية الدينية على اعتبار أنه مصدر الجدل والحوار على مبدأ المواطنة، أما المقومات الأخرى فقد تحقق لها من الثبات والاستقرار ما يجعلها فوق الجدل والخلاف.

وفي رأى الدكتور وليم أن التعددية الدينية في مصر بدأت في عام ٦٤٠ م مع لقاء عمرو بن العاص والبابا بنيامين بطريرك الكنيسة القبطية، وإن كنت أرى أن التعددية الدينية قديمة في مصر قدم الآلهة الذين تعددت أسماؤهم مع تعدد الأقاليم والتقاسيم. وكان فشل أخناتون في توحيد الآلهة دليل على انتصار مبدأ التعدد على مبدأ التوحد والدمج.

ويرى المؤلف أن اللقاء بين الإسلام والمسيحية على أرض مصر لم يكن سحقاً، وما يعطيه قيمته التاريخية أنه يعقب قهراً كان يمارسه مسيحيو بيزنطة ضد مسيحيي مصر، وأن أساس اللقاء لم يكن اعتناق أحد الطرفين لعقيدة الآخر رضاء أو جبراً، وإنما احترام كل طرف لعقيدة الآخر، أي تعايش العقيدتين الدينيتين معاً، أي تعايش مطلقين لا يستبعد أحدهما الآخر، وأن بدخول الإسلام مصر انضاف عنصر جديد إلى مقومات الكيان المصري، هو التعددية الدينية: المسيحية المصرية والإسلام.

وقد تابع الإسلام (المصري) ما صنعته الكنيسة المصرية من قبل؛

إذ ألقى الإسلام بُردته الدينية على مقومات الكيان المصري ، أما نسيج هذه البردة فمن أقوال المؤرخين المسلمين الأوائل عن فضائل مصر . وفي هذا السرد يتمثل عنصر الاستمرارية فى الكيان المصرى وفى تاريخ هذا البلد ، وأن «الإنسان والجماعة» يأخذان مفهومًا متشابهًا ومتكاملا فى عمق التدين المصرى المسيحى والإسلامي ، وإن النتيجة المهمة لهذه الحقيقة هى أن التعدد الدينى المصرى - فى صورتيه الدينية والشعبية - نشأ وعاش فى إطار فقه المحكومين ، أى فى إطار من «التجانس» الذى تصنعه مقومات الكيان المصري .

وهكذا ، صار فى الحياة المصرية قطبان يجرى الجدل بينهما ، وهما :

التجانس : وتمثله الأرض وسيادة العرق المصرى ووسيلة الإنتاج الرئيسة (الزراعة) ، وعلى وجه الخصوص النظام السياسي .

التعددية : ويمثلها الدينان : المسيحية والإسلام .

ولو أن واحداً من هذين القطبين ساد ، لانتثرت مصر - أى تفتتت - فلو أن التجانس ابتلع التعدد من خلال هيمنة أحد المطلقين ، لمحى وجود الآخر . ولو أن التعدد صار كاسحًا يكرس الفرقة ، لما صار للكيان المصرى مقومات وجود موحِّدة . ولكن الحياة المشتركة الاجتماعية والإنتاجية ، الثقافية والحضارية حالت دون حدوث الاستقطاب ، وأفرزت بديلا ثالثًا - غير الاستيعاب والاستبعاد المتبادل - هو الحياة المشتركة من خلال جدل القطبين : التجانس والتعدد . هذا البديل يحتفظ بمقومات التوحيد ولا ينفى وجود الآخر . الجماعة تُحيى التعدد على أرض الوحدة ، خاصة أنه فى هذه الحياة المشتركة ،

نجد الأرض لا تعطى الفرصة لعزلة فريق من مكونات الجماعة بعيداً عن جسمها. ومما أكد هذه الحياة المشتركة أن الإسلام لم يستمر دينًا للغزاة الحاكمين وحدهم، بل لقد دخل معتنقوه ضمن شريحة المحكومين أسفل حاجز السلطة، سواء نتيجة لسياسة الفاتح «عمرو» ومن شابهه من الولاة، أو بعد قرار المعتصم الذى أخرج العرب من ديوان العطاء، أو كأثر لتحول بعض القبط إليه. والنتيجة استمرار الانفصال بين الحاكمين والمحكومين الذين هم فى تعدد ديني، وصار المسلمون المصريون يمارسون الزراعة والحرف محرومين من ممارسة السلطة السياسية، بل يدفعون الجزية، وأصبح الجميع خاضعين معًا لنظام مستبد يُجرى عليهم قهراً مشتركًا بالتطبيق لفقه الحكام.

ومن الطبيعى أن يكون الفريقان ـ وخاصة فى القرى، حيث تتطلب الزراعة التعاون ـ أقرب موضوعيا إلى بعضهم بعضا، من صلة المسلمين منهم إلى الحكام الذين يدعون الانتساب إلى الإسلام، فصار هناك وحدة فى المعاناة والمصلحة والتوجه، وانبثق وجدان مشترك، وتوحد موحِّد للجماعة المصرية مصدره الحياة المشتركة.

وللدكتور وليم سليمان فكرة يتبناها فى كل مؤلفاته، وهى ظاهرة الانفصال القاطع بين الحكام والمحكومين، ويرى أنها حقيقة أساسية فى التاريخ المصرى استمرت على مدى آلاف السنين. وهو يضع خطًا أفقيا حاسمًا يقسم المجتمع المصرى إلى شريحتين: فى الأعلى يجثم الحكام، ولهم فقههم وأسانيدهم فى الاستئثار بالحكم. وفى أسفل الخط يعيش «أهل الأرض» بجميع مكوناتهم، ولهم أيضًا مفاهيمهم وتوجههم وعلاقتهم ببعضهم وبالحكام.

ويخلص من هذا إلى أن المسلمين والمسيحيين كانوا محرومين من الدخول فى مجال السياسة والحكم، وأن الدين (المسيحية والإسلام) لم يوصلا المصريين - لا فى العصر القبطى ولا بعد دخول الإسلام - لم يوصلاهم إلى السلطة، ولم يدخل المصريون الذين أسلموا إلى الجيش الإسلامى منذ عهد عمرو بن العاص إلى عهد محمد علي، ولم يحدث أن صار الوالى على مصر مصريا مسلما منذ «عمرو» إلى محمد نجيب (!!).

وكنت أتمنى على الدكتور وليم أن يشرح الأسباب التى أدت إلى النتائج التى أشار إليها، ففيها يكمن سر المأزق التاريخى الذى وضع فيه المصريين على هامش الحياة السياسية. وعلى مَن تقع المسئولية؟ على طبقة الحكام؟ أم على أهل الأرض من مسلمين ومسيحيين؟ الذين لم يبق لهم جميعًا من الدين - كما يقول - إلا قاسم مشترك هو العبادة والتصوف، أو الرهبانية والسلوك الأخلاقي. وقد وحَّدهم الشعور بالظلم، فانطلقوا بالدعاء إلى الله الواحد القهار أعدل العادلين ونصير المستضعفين فى الأرض، أو أن يرددوا فى آدابهم الشعبية إدانة الواقع، والحنين إلى حاكم من جلدتهم لم يمسه الرق... إلخ.

عدم تجنيد المصريين

هنا، يبرز سؤال لا بد من طرحه أمام المفكر الكبير: ما الذى منع المصريين من اختيار حاكم منهم - سواء فى العصر القبطى أو الإسلامى وفرضه على الواقع، كما فعلت أمم أخرى من حولنا، كانت جزءاً من

الدولة البيزنطية فى العصر القبطي، ثم صارت إلى دولة الإسلام الكبرى. وفى الأولى لم يظهر زعيم قبطى يقود حركة النضال الوطنى إلى جانب حركة النضال الدينى الذى تزعمته الكنيسة القبطية. ثم فى العصر الإسلامي، لم يكن الخلفاء يحولون دون ظهور زعيم وطنى يتسلم قيادة البلاد، وخاصة بعد أن دب الضعف والانحلال فى الدولة العباسية، وصار الخلفاء ألعوبة فى أيدى الولاة والسلاطين الذين جمعوا فى أيديهم مقاليد السلطة فى بلادهم وفى عقر دار الخلافة نفسها.

إن الدكتور وليم يؤيد ما ذهب إليه المؤرخون المحدثون بأن مصر لم تسترح من الاضطرابات والثورات إلا فى عهود الاستقلال تحت ظلال الطولونيين والإخشيديين... إلخ. فهل كان أحمد بن طولون الجندى الوافد من بخارى - موطن الترك الأوائل - هل كان مصريا (!!) وهل كان محمد بن طغج الإخشيد القادم من فرغانة - من بلاد ما وراء النهر - مصريا (!!) وهل كان الفاطميون الذين أقاموا إمبراطورية مصرية تناطح دولة الخلافة العباسية - مصريين؟

ويمكن طرح السؤال بالنسبة لمن جاء بعدهم من سلاطين الأيوبية والمملوكية، فلم يكن أى منهم مصريا بالمولد، ولكنهم جميعًا تمصروا، بمن فيهم محمد على الذى بعثته السلطة العثمانية جنديا، فجعله المصريون حاكمًا. وما حدث ذلك إلا لأن الأمة المصرية - كما يقول العقاد - لم يكن يعنيها الحاكم كما يعنيها صلاح الأرض. وما كان إبعاد المصريين عن الجندية يصدر عن بواعث عنصرية، وإنما إلى ظروف التجنيد التى كانت تعتمد اعتمادًا رئيسيا على العناصر

المرتزقة، تعويضًا عن نظام التطوع للجهاد الذى كان سائدًا فى عصر الفتح. وقد وجد الحكام فى العنصر التركى القادم من بلاد ما وراء النهر، منجمًا بشريا يتمتع بصفات جسمانية وحربية قوية، فأقبل الخلفاء والسلاطين على شرائهم وتربيتهم عسكريا ليكونوا مادة الجيوش. فهل كان من المقبول أن يهبط المصريون إلى مستوى المرتزقة والمماليك؟ وهم الأحرار أبناء الحضارة العريقة والمجد الرفيع (!!).

المفروض أن نقوِّم هذه العهود وفق تقاليد وظروف عصرهم، وليس حسب تقاليد وظروف عصرنا التى جعلت من التجنيد فريضة وطنية، ومظهرًا من مظاهر العزة القومية. وأدى الابتعاد عن الجيش إلى الابتعاد عن السلطة؛ لأن العسكرية كانت الطريق الوحيد للوثوب إلى السلطة، خاصة فى عهود الصدام بين عالم الإسلام والغرب المسيحى فيما يعرف بالحروب الصليبية، وسريان حمى شراء المماليك وتشكيل الفرق العسكرية لمواجهة الفيالق الأوروبية، مما دفع بعض الدول التى توالت على حكم مصر إلى شراء احتياجاتها من شتى الأجناس.

الطريق إلى السلطة

أما مقولة إن المسيحية والإسلام لم يوصلا المصريين إلى السلطة، فهو قول فيه نظر، وأود أن أذكر فى البدء أن الدين - أى دين - ليس من رسالته أن يحمل الناس إلى السلطة، وعندما تحولت الكنيسة الرومانية إلى دولة، وصار البابوات أباطرة، تحولت أوروبا إلى فرق متناحرة، وشقى الناس بعذاب محاكم التفتيش والاضطهاد الدينى وفوضى السيمونية... إلخ. وإنما الذى يحمل الناس إلى السلطة هو

اشتغالهم بالسياسة، وانخراطهم فى الشأن العام، ومشاركتهم فى تيار الحياة العملية. وفى حياتنا المعاصرة مصداق لهذه الحقيقة نراها ماثلة فى أحداث ثورة ١٩١٩ وفى أعقابها، «عندما زحف المحكومون إلى كراسى الحكم والسيادة، يدًا مصرية واحدة، ووجدانًا مصريا مشتركًا، وجهدًا سخيا من الجميع. ثم كانت مصر للمصريين، وكان الترحيب من الجميع بهذه المشاركة غامرًا، وكان الإقرار بحق المسلم والقبطى هو الإقرار بحق المواطن المصري. وهكذا، ولدت الجماعة الوطنية للوقوف فى وجه الاحتلال، وتشارك الجميع معًا الاعتقال والنفى والمصادرة والسجن وأحكام الإعدام والاستشهاد».

وليس معنى هذا أن الحياة المشتركة بين المسلمين والأقباط كانت مقطوعة أو ضعيفة على امتداد العهود، بل يذهب الدكتور وليم سليمان إلى أنه منذ دخول الإسلام إلى مصر كانت العلاقات بين مكونات الجماعة تقوم على التعاون والاختلاط والاحترام المتبادل. وحفظ لنا ذلك كله المؤرخون المسلمون والمسيحيون معًا، مثل ابن عبد الحكم، أول مؤرخى مصر الإسلامية، وساويرس أسقف الأشمونين صاحب كتاب «تاريخ البطاركة». وتكتسب رواية ابن عبد الحكم قيمتها من أنه يروى وقائع الفتح بعد قرنين من حدوثه، وهو دليل على أنه لم تبهت من ذاكرة المصريين قط حرارة ذلك اللقاء الأول بين الإسلام والمسيحية، ولا الممارسة التالية له. وتزداد قيمة هذه الرواية أيضًا بعد أن استوعب المصريون العربَ الوافدين، وثبت للجميع - من خلال الحياة المشتركة، ورغم كل ما حدث بسبب ظلم الولاة - صحة كل ما حفظه الرواة ودونوه.

وبهذا يصبح لما أثبته ابن عبد الحكم ونقله عنه المؤرخون جيلا بعد جيل - قيمة معاصرة نراها فى كتابات المؤرخين المحدثين، كما ينبغى أن تكون هذه الخلفية التاريخية ماثلة أمام الباحث وهو يدرس الحركة الوطنية المصرية التى قامت - بالإضافة إلى مبدأ المساواة بين المصريين - على مبدأ أساسى آخر، هو استقلال مصر عن النفوذ الخارجى عثمانيا كان أو غربيا.

نحو اجتهاد جديد

تمثل فكرة «المواطنة» نقطة الانطلاق فى كتابات المستشار وليم سليمان، وهو يراها حجر الزاوية فى البناء الوطني. وهو فى كتابه الجديد يقوم بجولة فاحصة فى كتابات رجال الفقه الدستورى والقانونى والديني، مثل الدكتور السنهوري، والدكتور عبد الحميد متولي، والدكتور محمد سليم العوا، والشيخ محمد الغزالي، والمستشار طارق البشري، وما كتبه كل منهم حول فكرة المواطنة فى الشريعة الإسلامية، والتطورات السياسة فى العصر الحديث، بدءاً من محمد على حتى قيام ثورة يولية ١٩٥٢ . ويستخلص من كتابات السنهورى وغيره أن الفقهاء المسلمين لم يكونوا يقبلون على دراسة فروع القانون العام فى حماس مماثل لاجتهادهم فى مجال القانون الخاص، وكانوا فى شلل تام بسبب النظام الاستبدادى الإسلامى منذ صعود بنى أمية، وأن الاجتهاد الإسلامى فى موضوعات القانون العام لا يزال فى طور الطفولة، وأن الجماعة الإسلامية عاشت زمانًا طويلا بدون نظم سياسية بالمعنى الصحيح، وخاضعة لنظم تناهض

تماما روح الإسلام، وهو نفس ما يقرره الدكتور عبد الحميد متولى فى قوله: بينما نجد علماء الفقه الإسلامى قد عنوا عناية كبرى بمسائل الأحوال الشخصية، وأحكام العبادات والمعاملات، فإن تراث هؤلاء العلماء يفصح عن ضعف عنايتهم بالأحكام الشرعية المتصلة بالقانون العام، وبوجه خاص بأحكام القانون الدستوري، ولا يزال الفقه الدستورى ـ بعد أربعة وأربعين سنة ـ كما وصفه السنهورى بأنه لا يزال ذلك الطفل فى المهد يحبو، لا يكاد ينهض حتى يكبو (!!).

كيف إذن يكون الخروج من هذه الأزمة؟

بادئ ذى بدء يقرر الدكتور وليم أنه كلما أثير موضوع المواطنة وحقوق المواطنين السياسية، اتجه الفحص فورًا إلى مركز غير المسلمين، بمعنى أن يكون ثمة تسليم مبدئى ومفترض بأن قضية الحقوق السياسية غير واردة بالنسبة للمسلمين، بل تتخذ حالة المسلمين نموذجًا ومعيارًا لحالة غير المسلمين، فيقال: لهم ما لنا، وعليهم ما علينا. وإن هذه المقولة لا تعطى الإجابة عن السؤال المطروح، بل هى فى حقيقة الأمر تجيب عن السؤال بأن تطرح سؤالا مبدئيا وأساسيا: ما هى حقوق المسلمين السياسية كما تتبدى فى الفقه السياسى الإسلامى المعبر عن الممارسة الواقعية؟ ولو أن هذا الجانب الأساسى من المشكلة تم حله حلا مرضيا، فإن الجانب الفرعى ينقضى فلا تنشأ بسببه مشكلة. وهو يرى أن النظام الدستورى لا يقوم فى جماعة بإعلان مبدأ أو نص، بل لا بد لهذا النص أن يكون تسجيلا لإنجازات حركة تقوم على صعيد الواقع لاستخلاص حقوق المحكومين.

وبعد أن يستعرض المؤلف المواقف الحاسمة المتتابعة فى الحركة الدستورية المصرية، منذ الفتح الإسلامى حتى عصرنا الحاضر - ينتهى إلى أن الخروج من الأزمة يقتضى اجتهاداً جديداً يراعى ظروف الزمان الذى صارت إليه الدولة المصرية على النحو الآتي:

أولا: أن النظام الدستورى الأصيل والفعال لا يقوم فى جماعة بمجرد إعلان مبدأ أو نص موضوع أو مستورد من المكان أو من الزمان، بل إن هذا النظام لا يصبح ذا قوة وفاعلية إلا إذا كان تسجيلا لإنجازات حركة تجرى على صعيد الواقع.

ثانيًا: الاجتهاد المرجو ينطلق من مفهوم خليفة الله - الإنسان - بقصد استخلاص حقوقه، واختراق حاجز السلطة الذى يحرمه من القيام بحكم بلاده بنفسه، والاجتهاد الجديد بهذه المثابة ينطلق من مفهوم مغاير لما جرى عليه الاجتهاد التقليدى الذى كان بسبب الظروف التى كانت عليها الدولة - يعنى سلطات الخليفة الحاكم - وضمانها له مطلقة بغير قيد.

ثالثًا: أن الإنسان الذى تمضى الحركة الدستورية لاستخلاص حقوقه، له طبيعة دينية تعددية، وحين نقرأ «صحيفة المدينة» التى وضعها الرسول (ﷺ) وجعل فيها مكونات الجماعة المختلفة فى الدين «أمة» واحدة، للمسلمين دينهم، ولغير المسلمين دينهم. حين نقرأ هذا النص فإننا نجد فيه الجذور الدفينة، وصياغة موفقة للشعار الذى تم حوله إجماع الأمة المصرية بعد قرون طويلة، وهو: الدين لله والوطن للجميع؛ إذ تقول الصحيفة: إن مكونات الجماعة بينهم النصح والنصيحة (الشورى) الديمقراطية. ففى عبارات الدكتور

العوا: «لا نشك لحظة ولا ما دونها أنه لولا نقض يهود المدينة عهدهم، وغدرهم بالنبى والمسلمين، لبقى العهد محترمًا؛ وفاءً من النبى بعهده، وأداءً لحق شركائه فيه».

رابعًا: أن المصدر الفقهى للمبادئ الأساسية فى النظام الدستورى فى صياغاته المتعاقبة منذ عهد الخديو إسماعيل، بل طوال مراحل الحركة الدستورية، وحتى وضع الدستور فى التطبيق خلال العشرينيات ـ هذا المصدر هو «الإجماع» بالمفهوم الفقهى لهذه الكلمة، أى كمصدر للأحكام. وهو إجماع جماعة ذات ملك ونات من أديان متعددة، كجماعة «صحيفة المدينة». فالمصريون جميعًا قرروا الحياة معًا، يتشاركون فى مساواة تامة سلطة الحكم فى بلادهم. وتبدى هذا الإجماع فى موجات متلاحقة على أجيال مستطيلة، منذ ثورة البشمور التى اشترك فيها المسلمون والقبط معًا. ويجيء الدستور بعد ذلك تسجيلا لهذا الإجماع، وتفصيلا لكيفية ممارسته.

خامسًا: والهدف هو إقامة «فقه المواطنة» أى النظام الشامل: السياسى والدستورى والقانونى والإدارى والاقتصادى، الذى يكون فيه منطلق التعامل وآلياته داخل الدولة والمجتمع هو «المواطنة» أى المشاركة والمساواة، وتتخذ فيه القرارات من جميع المواطنين أو من أغلبيتهم، والمقصود هنا أغلبية المواطنين دون نظر إلى دين أو أصل. ولقد جاء فى التقرير المقدم إلى المؤتمر المصرى (الإسلامي) الذى عقد عام ١٩١٢، أن الخطأ الفادح هو تقسيم الأمة المصرية باعتبارها نظامًا سياسيا إلى عنصرين دينيين: أكثرية إسلامية وأقلية قبطية؛ لأن مثل

هذا التقسيم يستتبع تقسيم الوحدة السياسية إلى أجزاء دينية ، أى تقسيم الشيء إلى أقسام تخالفه فى الجوهر . وتابع التقرير كلامه فقال : على ذلك يكون من السهل فهم انقسام الأمة باعتبار المذهب السياسى إلى أكثرية وأقلية ، كلها (الأغلبية والأقلية) غير ثابتة ، بل متغيرة بتغير المذاهب السياسية وانتشارها قلةً أو كثرة .

عن الوحدة الوطنية والفتنة الطائفية

القرآن فى بيت عم صليب!(*)

حفظتُ أوليات سور القرآن الكريم فى بيت عم صليب، وكان عم صليب من أعيان الأقباط فى بسيون، ولم يجد حرجًا من أن يؤجر بيته لجمعية المحافظة على القرآن الكريم، وكانت فصول المدرسة لا تخلو من تلاميذ يحملون أسماء: مرقس وجرجس ومسيحة وسمعان. كنا نجلس معًا فوق دكك خشبية متهالكة نحفظ القرآن ونتعلم القراءة والكتابة والحساب، ونتلقى من أفواه مشايخنا مبادئ الحب والإخاء، ونتفاعل فى بوتقة الامتزاج الحضارى الذى ورثناه عن أجدادنا منذ آلاف السنين.

وفى الوقت نفسه، كان قسيس الكنيسة - أبونا متّى - يسكن فى بيتنا، ونشأت بينى وبينه ألفة عقلية، رغم الفارق الكبير فى السن،

(*) مقدمة كتابنا «الفتنة الطائفية فى مصر: جذورها ومسبباتها».

فكنت أجلس إليـه بالسـاعـات نتبـادل الحـديث والقـصص والنوادر التاريخية. كما نشأت بين أمى وزوجته عشرة قوية، فكانتا تقضيان سحابة النهار فى الثرثرة والمشاركة فى المهام المنزلية التى تتطلب تعاونًا عـائليـا، وفى الأعـيـاد والمواسم تتبـادلان أطبـاق الحلوى والكعك و«عاشورة». ولاحظت أن أمى كانت تتحرج من تناول طعام الأقباط - استنادًا إلى معلومات دينية مغلوطة - فلما أدت فريضة الحج عادت بأفكار صحيحة، وعلمت ما كانت تجهله من أن طعام أهل الكتاب حلال للمسلمين، وطعام المسلمين حلال لأهل الكتاب، فكانت تحمد الله على نعمة العلم.

ورحلت أسرة «أبونا متّى» إلى بيت تمليك، وحلت محلها أسرة وافدة من القاهرة تضم مدرسًا مسيحيا حديث الزواج، وكانت زوجته (أبلة ماري) سيدة قاهرية صميمة، ليس لها سابق خبرة بالحياة فى الريف، وقضت الأسابيع الأولى وهى فى غاية الضيق، ولكن أمى - سريعة الامتزاج بالأغراب - سرعان ما نجحت فى إزالة الإحساس بالغربة عند القاهرية المستوحشة، فاندمجت فى أسرتنا لدرجة أنها لم تكن تغادر شقتنا إلا عند النوم! وعندما وضعت مولودها الأول (رفيق) استقبلته أمى بين يديها، وأقامت له طقوس السبوع التقليدية قبل أن تقام له طقوس التعميد فى الكنيسة.

وكانت مارى مسيحية فاضلة، محبة للخير، فجمعت حولها رهطًا من أطفال الأقباط لتعليمهم الدين وتحفيظهم الترانيم الكنسية، وكانت أصوات الترانيم الجماعية تتردد فى الشارع الكبير فتثير دهشة بعض الناس، فيبعثون إلى أمى بعتابهم ويحرضونها على التدخل

حتى لا يتحول بيتنا إلى كنيسة ، وكان رد أمي غاية فى البساطة : كيف تطلبون منى أن أمنع سيدة تعلم الأطفال دروس الدين والفضيلة؟ أليس ذلك أفضل من دروس الفجور والرذيلة؟ وكانت أمي تقصد بذلك ضابط النقطة الذى كان يقيم فى الشقة نفسها - قبل سنوات - ويمارس فيها الفجور دون أن يجرؤ أحد على التعرض له ! !

وظلت «أبلة ماري» وزوجها الأستاذ رشدى فخرى يعيشان معنا وكأنهما جزء من أسرتنا ، فلما جاء قرار نقلهما إلى بلدة أخرى شعرنا كأن شيئًا عزيزًا قد انتزع منا ، ولما حان وقت سفرهما غادرت أمي البيت حتى لا تشهد لحظة رحيلهما ، وبعدها أقسمت ألا تؤجر الشقة لمغترب حتى تتجنب ألم الرحيل والفراق بعد متعة الألفة والامتزاج . وبقيت العلاقة العائلية قائمة بيننا وبين أسرة الأستاذ رشدى لسنوات طويلة ، يزورونا فى المناسبات ونزورهم فى شبرا كلما هبطنا القاهرة ، حتى باعدت بيننا الأيام بشواغلها التى لا ترحم . ومنذ سنوات - وكنت فى أبو ظبى - قرأت فى الصحف نعى الأستاذ رشدي ، فتملكنى إحساس عميق بالألم ، وطافت برأسى ذكريات غالية بقيت راسخة فى قلبى عن هذه الأسرة المسيحية الفاضلة التى عاشت بيننا وامتزجنا بها ، ولم يخالطنا أى شك فى حبهم لنا وحبنا لهم .

هل كان مسلكنا مع هؤلاء الأقباط ومسلك هؤلاء الأقباط معنا شيئًا غريبًا فريدًا يثير الدهشة ويستحق التسجيل ؟ ؟

لا أظن ، بل هى الصورة الطبيعية والمسلك المألوف عند المصريين منذ عاشوا على ضفاف النيل ، يأكلون من وعاء واحد ، ويشربون من وعاء واحد ، ويتكلمون لغة واحدة ، ويمارسون عادات وتقاليد غاية

فى التطابق، حتى ليصعب على الغريب أن يميز المسلم من المسيحى إلا حين يذهب أولهما إلى المسجد وثانيهما إلى الكنيسة. وكانت هذه الوحدة الأزلية مثار دهشة الأوروبيين الذين عانوا فى بلادهم جحيم التفرقة المذهبية والدينية والعرقية.

انظر إلى ما يقوله جورج يونج فى كتابه «مصر» عند حديثه عن الأقباط والمسلمين، ونقله طارق البشرى فى كتابه الجليل «المسلمون والأقباط فى إطار الجماعة الوطنية» يقول جورج يونج: لا يوجد فى مصر تفرقة طائفية ضد الأقباط، تفرقة من تلك التى تعانى منها الأقليات الضعيفة فى أوروبا، فالكتاتيب مفتوحة للأقباط الذين يمكنهم أن يتلقوا فيها تعاليم دينهم، وفى الأقاليم التى تزيد فيها نسبة السكان من الأقباط تعين الحكومة المدارس القبطية إعانات لها أثرها. وقال إنه عندما لا يتمكن الأقباط من الوصول إلى المجالس النيابية المحلية كمجالس المديريات يعين فيها عدد منهم، وإنه منذ قرون لم يحدث اضطهاد لهم، وإن تاريخ الأقباط يكشف عن أنهم عانوا ضيمًا من أهل ديانتهم المسيحيين - الأرثوذكس أو الكاثوليك - أكثر مما عانوا من أهل وطنهم المسلمين. وإنه من المثير للفضول أن يلاحظ أن العلاقة بين العنصرين تظهر أوثق ما تكون فى المناسبات الدينية؛ إذ يبنى الأقباط مساجد المسلمين، كما يعيد المسلمون بناء الكنائس القبطية، ويشترك الشيوخ والقسلوسة فى الاحتفالات الدينية وما بقى من مظاهر الديانات القديمة مثل وفاء النيل وشم النسيم، ويذهب المسلمون والأقباط إلى زيارة الأضرحة ذاتها للأولياء والقديسين المحليين، ويتناقلون الأقاصيص ذاتها، ويهزجون بالأغانى ذاتها، ولهم الفضائل ذاتها، والصفات ذاتها، ووجهات النظر ذاتها عن

الحياة؛ لذلك لم يكن الإخاء القبطى الإسلامى فى ثورة ١٩١٩ جديدًا ولا طارئًا.

ويشير طارق البشرى إلى بعض المسلمين الذين تلقوا تعليمهم فى المدارس التى أنشأتها الكنيسة القبطية، وإلى بعض الأقباط الذين تعلموا فى مدارس الأوقاف الإسلامية، وفضلا عن ذلك لم يكن الأزهر موصد الأبواب من دون القبط، وقد ذكرت صحيفة «الوطن» القبطية أنه كان للأقباط قديمًا رواق بالأزهر يتلقون فيه العلوم المنطقية والشرعية، وأن ممن درسوا بالأزهر قديمًا «أولاد العسال» وهم من كبار مثقفى القبط ولهم مؤلفات مهمة، ومنهم حديثًا ميخائيل عبدالسيد صاحب صحيفة الوطن؛ إذ درس فى الأزهر ثم انتقل إلى دار العلوم لما أنشئت، ووهبى تادرس الشاعر الذى كان يحفظ القرآن الكريم ويكثر من الاقتباس منه، وفرنسيس العتر الذى كان يحضر دروس الشيخ محمد عبده سنة ١٩٠٢.

لذلك كان الإسلام من ناحية، ومسيحية القبط من ناحية أخرى، والامتزاج الحضارى بين المسلمين والأقباط فى مصر، كان كل ذلك مما كون المناخ التاريخى والحضارى والاجتماعى والثقافى والنفسى لتبلور المفهوم القومى للجماعة السياسية المصرية، فانطلق بغير عراك حقيقى مع العقيدة الإسلامية.

ويحكى السيد رشيد رضا أن الشيخ محمد عبده كان يرى الوطنية عبارة عن تعاون أهل الوطن الواحد - المختلفى الأديان - فى كل ما فيه؛ عمرانه وإصلاح حكومته، وأن الإسلام لا يعارض فى شيء من ذلك كما يثبته شرعه فى العدل والمساواة، وأن السيد جمال الدين الأفغانى

كان يرشد تلاميذه وحزبه السياسى إلى وجوب اتحاد أهل كل قطر شرقى فى التعاون على الأعمال الوطنية السياسية والعمرانية. وكان حزبه مؤلفًا من أذكياء الملل المختلفة، ولم نر أحدًا من الناس الذين تكلموا فى شئونه والذين كتبوا عنه فى مدة حياته ولا بعد مماته، اتهمه بالتفريق بين أهل الوطن الواحد. وكذلك كان الشيخ محمد عبده يرى القبط على أتم الاتحاد والتآلف والتعاون بينهم، ولم يصدر عنه قول ولا فعل فى مقاومتهم أو دعوة المسلمين إلى ذلك، وإنما كان يحب أن يجتهد كل فريق بنفسه فى ترقية مصالحهم المالية، ويتعاون الجميع على المصالح المشتركة الوطنية.

وكتب الإمام محمد عبده عن مصر والمصريين: إن الدين الإسلامى الحقيقى ليس عدو الألفة ولا يحارب المحبة، ولا يحرم المسلمين من الانتفاع بعمل من يشاركهم فى المصلحة، وإن اختلف عنهم فى الدين. ويذكر أن العارف بحقيقة الإسلام أبعد عن التعصب الجاهلي، وأقرب إلى الألفة مع أبناء الملل المختلفة، وأن القرآن - منبع الدين - يقارب بين المسلمين وأهل الكتاب «حتى يظن المتأمل فيه أنه منهم لا يختلفون عنهم إلا فى بعض أحكام قليلة»، ولكن أعداء الدين أفسدوا قلوب أهاليه «ولا قلوب أقرب إلى الإصلاح من قلوب أهل مصر...».

تدبروا هذه العبارة الأخيرة:

«لا قلوب أقرب إلى الإصلاح من قلوب أهل مصر».

فما الذى جرى يا قوم؟! ومن المسئول عن هذه الموجات العاتية التى تهب على بلادنا بين الحين والحين لتنشر السواد والظلمة والفساد

فى قلوب أهل مصر؟ وتعكر على المصريين صفاء قلوبهم، ونقاء ضمائرهم، وسلامة نفوسهم؟

هل نتقدم إلى الأمام، أم نرجع إلى الوراء؟

لقد كان آباؤنا أكثر وعيا وأعمق فكرًا وأرق حسّا، عندما أدركوا قيمة الوحدة الوطنية، فتشابكت أيديهم، وتضامنت قلوبهم، وواجهوا رصاص العدو الغاصب صفا واحدًا كالبنيان المرصوص.

هل أصبحنا أقل منهم وعيا عندما سمحنا للأصابع الخفية بأن تعبث فى الظلام، وتحيل بلدنا إلى حريق مشتعل؟!

أى دين يرضى بالفرقة والانقسام والدمار والانتحار؟!

وأى دين يرضى لأتباعه أن يكونوا وقودًا لهذه الحرب الخبيثة؟!

إن الأديان السماوية سواء فى الحض على إشاعة الحب والألفة والتعاون والبناء المشترك لنجعل من الوطن واحة للسلام والرخاء فكيف نحيله جحيمًا مستعرًا بالبغضاء والأحقاد والضغائن؟!

ويأيها الأطهار أتباع محمد والمسيح! أفيقوا إلى ما يدبر لكم، واحذروا نار الفتنة التى تدبرها عقول خبيثة تريد لهذا البلد أن يتحول إلى «لبنان» جديد، وستكونون أنتم أول ضحايا هذه الفتنة الهوجاء، وعندها لن يغفر الله لكم ما فرطتم فى حقه وفى حق الوطن.

العابثون بالوحدة الوطنية(*)

الصغار يرتكبون الخطأ، والكبار يدفعون الثمن، ويقع الأفراد فى المحظور، وتنسحب المسئولية على المجموع. والمحظور هو أن تمتد يد خبيثة لتشعل نار الفتنة بين أبناء الوطن الواحد، فإذا كان للشعب المصرى أن يعتز بتاريخه وتراثه وأخلاقه، فإن الوحدة الوطنية تقف على رأس هذه المقدسات الموروثة منذ عرف المصريون الدين، واهتدوا إلى التوحيد، وآمنوا برسالات السماء، وأقاموا دور العبادة، واندمجوا فى سبيكة بشرية ليس لها نظير فى العالم القديم أو الحديث. فمصر هى البلد الفريد الذى يعيش فى المسلمون والأقباط فى رباط إلى يوم القيامة.

فإذا جاء اليوم من يعبث بالوحدة الوطنية، ويشعل نار الفرقة بين أبناء الوطن الواحد، يكون من واجب رواد الاستنارة الفكرية، وأصحاب الضمائر الحية أن يتصدوا لهذا العبث بكل ما يملكون من قوة الحجة، ونفاذ البصيرة، والوعى بالتاريخ. ولا بد أن يعرف هؤلاء الصغار أن الوحدة الوطنية كانت الصخرة التى تحطمت عليها خطط الاحتلال الأوروبى منذ نابليون وحتى كرومر. كانت التفرقة بين المسلمين والأقباط هدفًا ثابتًا فى خطة الاحتلال حتى تكون له السيادة على المسلمين والأقباط، ولكن الوعى المصرى الأصيل أفسد خطط الاحتلال حتى اضطرت بريطانيا إلى سحب كرومر من مصر عام ١٩٠٧ وأوفدت من بعده معتمداً بريطانيا يهوديا اسمه الدون جورست، أضاف إلى نار الاحتلال عقدة التعصب والحقد على

(*) الوفد ١١ مارس ١٩٩٠.

المسلمين والأقباط، واتبع خطة سلفه في خبث حتى وقع الانشقاق المؤسف بين الطرفين، فتداعى الأقباط إلى عقد مؤتمر أسيوط، ورد عليهم المسلمون بعقد مؤتمر مصر الجديدة. ولكن ماذا كانت النتيجة؟

لقد خطب المتحمسون والمتشنجون فى المؤتمرين، بينما كانت الجماهير المصرية - إسلامية ومسيحية - تواصل حياتها وتباشر وحدتها، وتتفق عواطفها فى تيار الوحدة الواحدة، حتى انجلى غبار الكلمات عن غلبة العقل والحكمة والاعتدال، وانتهت المؤتمرات كما بدأت دون أن تخدش بناء الوحدة المقدس، فلم يصدر عن مؤتمر أسيوط كلمة واحدة تمسمشاعر المسلمين، ولميصدر عن مؤتمر مصر الجديدة كلمة واحدة تمس مشاعر الأقباط، وإذا بكل ما جرى أشبه بسحابة صيف انقشعت. حتى إذا اندلعت ثورة ١٩١٩ انجرف فيها المصريون مسلمين وأقباطًا تحت علم مصر الخالد، واختلطت دماؤهم وهم يقعون صرعى برصاص الاحتلال، وانجلت الثورة عن أثمن وأغلى ما يفخر به الشعب المصري، وهو رسوخ وحدته الوطنية، مما أذهل الاحتلال وأدهش العالم.

هذه هى مصر الحقيقية، مهد الدين، وموطن التوحيد، وقبلة الأنبياء والرسل والصحابة والعلماء والمفكرين. وقد وجدوا فى ربوعها الأمن والسلام. فلمصلحة مَن إهدار الأمن والسلام؟ ولمصلحة من ارتكاب هذه الصغائر التى توغر الصدور وتشحن النفوس بالبغضاء؟ هل تريدون أن تجعلوا من مصر لبنان أخرى حتى تكون السيادة لإسرائيل من الجولان إلى الشلال؟ أم أن المقصود من كل هذا العبث إحراج الرجل الذى يجلس الآن على رأس جهاز

الأمن، وقد بدأ صفحة جديدة فى السلوك الأمنى تختلف عن سلوك سلفه؟ هل تريدون العودة إلى أسلوب الضرب فى سويداء القلب؟ وقتل الناس بالشبهة؟؟

هذه الأيدى تستحق القطع (*)

إننا نظلم أنفسنا إذا حملنا جهاز الأمن مسئولية حماية دور العبادة، فمن العار أن تكون دور العبادة فى مصر تحت حراسة الشرطة فى أواخر القرن العشرين، وهى التى عاشت القرون فى عيون المصريين جميعًا يحرسونها بإيمانهم ووعيهم وتآلفهم، فلا ينال منها إلا ظالم أو حاقد أو عميل يريد إثارة النار حتى تسود الفتنة ويختل الأمن، وتسقط مصر ثمرة هزيلة فى أيدى المتهوسين والجهال.

إن حماية دور العبادة هى مسئولية كل مصرى يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ولا نتصور مسلمًا يفهم تعاليم الإسلام يشعل النار فى كنيسة، ولا نتصور مسيحيا يعرف تعاليم المسيح تمتد يده بالأذى إلى مسجد!!

فتلك بيوت الله، أجل وأشرف من أن تكون مجالا للتنفيس عن الحقد الأسود، ولا موضعًا للتعبير عن التعصب الأهوج. وهؤلاء الصبية الذين يلقون الزجاجات الحارقة على أبواب الكنائس هم ضحايا لعقول متحجرة على الجهل والتعصب، وهم يهدمون أصول الإسلام المستمدة من القرآن والسنة، ويتجاهلون أن المسلم والمسيحى سواسية فى عصمة الدم المؤبد، وينسون أن دماء أهل الكتاب

(*) الوفد ١٢ مارس ١٩٩٠.

معصومة باتفاق المسلمين جميعًا، وأن إيذاء أهل الكتاب هو كبيرة من كبائر المحرمات، وربما لا يعلمون أن فقهاء المسلمين على اختلاف مذاهبهم وأقطارهم وعصورهم اتفقوا على حرمة أهل الكتاب فى أنفسهم وأموالهم وأبدانهم وأعراضهم، وأن الإسلام قرر حرية التدين والاعتقاد والتعبد لغير المسلمين، فلكل ذى دين دينه ومذهبه، لا يجبر على تركه إلى غيره، ولا يتعرض لأى ضغط ليتحول إلى الإسلام. وأساس هذا الحق قوله تبارك وتعالى: ﴿**لا إكراه فى الدين**﴾ وقوله لنبيه: ﴿**أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين**﴾. وعلى هذه التعاليم الواضحة نهج الخلفاء والحكام والسلاطين - حتى فى أشد العصور تعسفًا - فلم يعرف التاريخ حاكمًا حاول إجبار أهل الكتاب على الإسلام.

إن الأيدى التى تشعل النار فى الكنائس هى أيد أثيمة تستحق قطعها؛ لأنها تمتد بالأذى إلى بيوت أمر الله أن تحفظ وتصان فيها الشعائر والنسك، بل إن القرآن الكريم وضعها فى مكانة التقديس والحرمة، وجعل من أسباب الإذن بالقتال حماية حرية العبادة فى البيع والصوامع والكنائس والمساجد، فقال تعالى: ﴿**أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير الحق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا**﴾. والخلفاء الراشدون هم الذين صانوا فى عهودهم الموثوقة حرية العبادة لأهل الأديان الأخرى، وكان لهم «الأمان فى أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وسائر ملتهم، ولاتسكن كنائسهم، ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها، ولا من صليبها ولا من شيء من أموالهم، ولا

يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم. . . » .

هذه تعاليم الإسلام الواضحة الصريحة فى التعامل مع أبناء الديانات الأخرى، فلماذا أهدر العابثون هذه الأصول الإسلامية، وانصاعوا للدجالين والأفاقين ومروجى الفتنة؟ وكيف يتخلى هؤلاء المنتسبون إلى الإسلام عن تعاليم دينهم ويرتكبون الكبائر التى يأباها الله ورسوله وصالح المؤمنين؟ ولماذا يفعلون الإثم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا؟

إنهم يزايدون على تعاليم الإسلام، ويتصورون أنفسهم أشد غيرة على الدين من صاحب الدين سبحانه وتعالى، وقد جعل الخلاف فى الأديان واقعًا بمشيئته جل وعلا، وجعل الفصل بينها من الأمور التى اختص بها، وهو الذى قال بصريح العبارة: **﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين﴾** وهو الذى خاطب نبيه فقال: **﴿ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعًا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾** وهو الذى أمر رسول الإسلام بألا يجادل أهل الكتاب إلا بالحسنى. والهدف من كل ذلك أن يستريح ضمير المسلم ولا يجد فى نفسه أثرًا للصراع مع الأديان الأخرى، وليعمل أهل كل دين بما يحض عليه من خير وفضيلة، وليمتنع أهل كل دين عما ينهى عنه من رذائل.

ولكن لا يزال هناك من يضعون أنفسهم فى مكانة أكبر من مكانة الأنبياء والرسل والعلماء والفقهاء. وفى ذلك بلاء كبير، ويشتد البلاء إذا تصور هؤلاء المتهوسون أنهم يحرجون الحكومة بهذه الأعمال الإجرامية، فالانتقام من الحكومة عن طريق الإيذاء إلى

المسيحيين هو أكبر دليل على اختلال العقل واضطراب الذهن وسوء الطوية. وهو مقدمة لفتنة هوجاء، نسأل الله أن يحمى مصر من أوارها، ويلهم جميع أبنائها نعمة العقل والروية والحكمة، حتى يعود ميزان الاعتدال إلى موقعه. والله من وراء القصد.

بقاء مصر فى وحدتها الوطنية(*)

الوحدة الوطنية ليست كلمات طنانة، ولا شعارات براقة، ولا ألفاظ منمقة لخداع السذج والعوام. الوحدة فى معيار الوجود المصرى ضرورة حتمية لبقاء مصر نفسها، فمصر بلا وحدة بين أبنائها سوف تتحول بشريا إلى شراذم يقتل بعضها بعضًا، وسوف تتحول جغرافيا إلى ولايات ودويلات تحكمها إسرائيل. نقول هذا بصريح العبارة لمن لا يعرف طبيعة مصر سكانيا وجغرافيا وتاريخيًّا، والذين يتصورون أن إيذاء الأقباط سيؤدى إلى مضايقتهم ـ واهمون، فالأقباط متداخلون فى النسيج الإسلامى تداخل الزبد فى اللبن، والمسلمون والأقباط يشكلون معًا هذا البنيان المرصوص الذى يشد بعضه بعضًا، وانتزاع بعض لبناته يعنى هدمه جميعًا. والشارع القبطى فى مصر يختلف تمامًا عن حارة اليهود (الجيتو) الموجودة فى كل عواصم العالم، وتعيش فى عزلة نفسية واجتماعية ودينية عما يحيط بها. الأقباط ليسوا منعزلين عن المسلمين فى معيشتهم وفى تكوينهم النفسى والأخلاقى والحضاري، الجميع يرضعون من صدر مصر الخالدة: هذا يرضع لبنًا طاهرًا صنعه الله وأوحى به إلى محمد بن عبد

(*) الوفد ١٣ مارس ١٩٩٠.

الله صلى الله عليه وسلم، وذاك يرضع لبنًا سائغًا صنعه الله وأوحى به إلى عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم. ومصر تحنو على الجميع وتفيء عليهم بظلالها وعطائها وخيرها حتى يكونوا فى منعة وعزة وسؤدد. فكيف يأتى اليوم مخبول أو معتوه ليضع بذور الشقاق بين جماعة اندمجت فى سبيكة بشرية واحدة؟

نعم، هكذا يعيش المصريون منذ ظهورهم على ضفاف النيل قبل أن تظهر الأديان. وجاءت مبادئ الإسلام لتزيد هذه الوحدة قوة وفعالية وتماسكًا بالمودة والتضامن وحسن العشرة. والإسلام هو الذى أباح للمسلمين أن يأكلوا طعام المسيحيين، وأن يتزوجوا من نسائهم، مع حق الزوجة فى الحفاظ على دينها ومذهبها ومعتقداتها، فنجد مصريا مسلمًا له جد أو جدة أو خال مسيحيون، وهو مأمور بأن يلقى إليهم بالمودة والحب والرحمة التى هى أساس فى بناء المجتمع القوي، فقوة المجتمع وتضامنه هدف إسلامى نبيل لا ينبغى أن نفرط فيه تحت ضغط المتهوسين والجهال. ومن واجب أصحاب العقل والحجا فى هذا البلد أن ينهضوا لمقاومة هذه الموجة الإجرامية بكل قوة وشجاعة، وعليهم أن ينتزعوا من عقولهم تلك الحساسية المفرطة التى تفرضها طبيعة الفتنة الطائفية. فالقضية قضيتنا جميعًا، يتألم منها القبطى ويتألم منها المسلم. فلماذا الحرج؟ وكيف يجوز السكوت؟

إن الذين يضرمون النار فى كنيسة صغيرة اليوم، سوف يحرقون الجامع الأزهر غدًا. والذين يؤذون اليوم مصريا بسبب انتمائه الديني، سوف يعتدون غدًا على جميع المصريين بسبب انتمائهم الاجتماعى أو السياسى أو الوطني؛ فنار التعصب والجهل لا تفرق

بين الأخضر واليابس، وإن النار بالعودين تزكى. وإن الحرب أولها كلام، فالسكوت على الخطأ جريمة سوف نسأل عنها أمام الله وأمام ضمائرنا. وما ضمائرنا إلا خلاصة «الضمير الإسلامي» العام الذى صنعته عقيدة الإسلام، وتربية الإسلام، وتقاليد الإسلام. هذا الضمير لا بد أن يستيقظ ليقتل الفتنة فى مهدها قبل أن تستفحل ومعناه نقف أمامها موقف العاجز الملوم. إن واجب ذوى الاستنارة الفكرية فى هذا البلد أن يشمروا عن ساعد الجد للحفاظ على وحدة المجتمع المصري، وتضامن أبنائه فى وجه هذا الفكر المخرب. ولا يصح أن نلقى العبء على جهاز الأمن وحده؛ لأن الخلل كامن فى عقول الصبية المخدوعين، والخلل الفكرى لا يعالج إلا بحملة تنوير تهدم الأفكار المغلوطة، وترسى قواعد الأفكار الصحيحة، وبذلك نحمى أولادنا من سيطرة المخربين الذين يضمرون السوء والشر لكل من يعيش على أرض مصر.

فى غيبة العقل تشتعل الفتنة(*)

ما معنى أن تتسبب إشاعة كاذبة فى وقوع أحداث دامية بين المسليمن والأقباط في« المنيا »و«أبو قرقاص»؟ وما معنى أن تختلق صبية صغيرة مصابة بمرض التخيل قصة محبوكة، فيتلقفها الغيورون على الدين ويرددونها على المنابر فتهيج الخواطر، وتثور الأعصاب، وتتوتر النفوس، وتنطلق الأيدى بالعبث والتخريب والإيذاء، ويتحول السلام الاجتماعى إلى جحيم، ويتحول الإخاء إلى عداء، والوفاق إلى شقاق؟

(*) الوفد ٢٣ مارس ١٩٩٠.

معنى هذا كله أن المناخ الاجتماعى أصبح مهيأ لبث الإشاعات واختلاق الأكاذيب لم تصديقها دون بذل أى جهد عقلى أو نقلى لتمحيصها وتفنيدها، واكتشاف ما تتضمنه من مبالغة أو تلفيق أو تهويل. ومعناه أن النفوس مهيأة لتقبل ما يلقى إليها من أقاويل. ومعناه - وهذا هو الأخطر - أن الساحة خالية من عناصر التعقل والحكمة والبحث والتقصي، وأصبحت نهبًا لعناصر الإثارة العاطفية.

وإننى أسأل الإخوة الذين اعتلوا المنابر وشقوا الحناجر، وأثاروا المصلين لحماية الدين: هل تأكدوا من صدق الأقاويل التى سمعوها من فتاة دون الخامسة عشرة؟ هل كلفوا أنفسهم جهد البحث عن الشقة التى زعمت أنها كانت تستخدم فى تصوير الفتيات المسلمات فى أوضاع مشينة؟

لو أن هؤلاء الإخوة عرضوا القصة على ميزان العقل لرفضها وحكم بزيفها. ولو صح أن هناك جهات أجنبية تعمل على تشويه سمعة الفتيات المسلمات لوجدوا بغيتهم فى العاصمة ذات الخمسة عشر مليون إنسان، ولما ذهبوا إلى بلدة صغيرة فى صعيد مصر حيث التقاليد الصارمة والأخلاق المتشددة، وحيث يعرف الناس بعضهم بعضًا!!

ولو أن هؤلاء الإخوة عرضوا قصة الفتاة على ميزان النقل، لعلموا أن الإسلام يأمرنا بأن نتثبت من صحة الأقاويل التى تلقى على مسامعنا، خشية أن نصيب قومًا بجهالة فنصبح على ما فعلنا من النادمين. والإسلام لم يضع هذه القواعد الأخلاقية الحصينة إلا

ليحمى أعراض الناس من الإيذاء، ويحمى المجتمع من ضرر الفساق والجهلة ومروجى الإشاعات. الإسلام يريد للمجتمع أن يكون قويا متماسكًا متضامنًا، ولذلك يحذرنا من خطر الانزلاق إلى تصديق الأكاذيب، ولكن الغيورين على الدين تناسوا هذه التعاليم القرآنية وأطلقوا لعواطفهم العنان.

إن الحوادث المؤسفة التى وقعت فى «المنيا» و«أبو قرقاص» بسبب قصة ملفقة، لا ينبغى أن تمر دون وقفة مع النفس والعقل والضمير، ولا بد أن نبحث عن الدواعى التى أدت إلى تصديق القصة بلا روية وما ترتب عليها من انفلات الأعصاب. وأرى من واجبى أن أتصدى لإشاعة أخطر من إشاعة «أبو قرقاص»، ولا أجد حرجًا فى هذا التصدي؛ لأننى أرى أن المصارحة هى أقصر الطرق للوصول إلى الحقيقة وإفساد الشائعات، فالشارع المصرى يموج بإشاعة تزعم أن هناك جماعات تبشيرية أجنبية تمارس نشاطًا محمومًا فى أوساط المسلمين الفقراء بهدف تنصيرهم. وفى هذا المناخ المشحون بالتوتر يصدق الناس الإشاعة، فتزداد نفوسهم حقدًا وغضبًا، ولا يجدون فى أنفسهم الرغبة فى تفنيدها. ولعل أبسط وسائل التفنيد أن نسأل مروجى الإشاعة عن أسماء هؤلاء المسلمين الذين تحولوا إلى النصرانية؟ ولكن أحدًا لا يسأل، ولو أنه سأل فلن يسمع جوابًا، ولن يجد اسمًا واحدًا لمسلم تحول عن دينه!!

الناس لا يبحثون عن مصداقية الإشاعة؛ لأن عندهم الاستعداد النفسى لتصديقها، وهذا هو مكمن الخطر، وهذا ما ينبغى أن يتوقف عنده أرباب العقول فى هذا البلد ليبحثوا عن العوامل الدفينة التى

تجعل للأكاذيب سلطانًا على مشاعر الناس. فعندما يغيب العقل تنطلق العواطف المكبوتة من مكمنها، وتخلوا الساحة لعناصر الإثارة والتهييج، وتصبح الجماهير أداة طيعة لينة فى أيدى المخربين.

عندنا إذن دور مفقود كان ينبغى أن يشغله ذوو العقل والاتزان والفهم والثقافة، والعارفون بأبعاد هذه القضية التى تشتعل تحت الرماد. وعندما تبحث عن هؤلاء فلن تجدهم؛ لأن الدولة لا تريد لأصحاب هذه الأوصاف أن يحملوا رسالة التنوير والتثقيف والتربية فى مصر، وتفضل أن تتعامل مع أصحاب العقول الفارغة، والثقافة السطحية، وتفضل أن تعالج القضايا الخطيرة بأسلوب المراهم الظاهرية، والتهرب من معالجتها جذريا. وعلى الدولة أن تتحمل مغبة مسلكها فى يوم لا ينفع فيه الندم.

العصر الذهبى للوحدة الوطنية(*)

ونحن نتكلم عن مظاهر الأزمة الطائفية، لا بد أن نبحث عن جذورها ومسبباتها فى التربة الاجتماعية، فالفتنة طفح جلدى ظاهري، ولكن أسبابه باطنية يعرفها علماء الاجتماع السياسي. والفتنة لا تتمثل فقط فى إثارة الشقاق بين أفراد الجماعة المصرية، وإنما تستطيع أن تلمسها فى تلك الروح العدوانية التى تسود الأفراد بعضهم لبعض، وتلمسها فى ضعف الروح الجماعية التضامنية، وسيطرة النزعة الفردية التى تجعل المواطن يقاتل من أجل منفعته الخاصة ومن بعده الطوفان، وتلمسها فى نمو الروح الطائفية بين النقابات والفئات

(*) الوفد ١٥ مارس ١٩٩٠.

والتجمعات المهنية ، وتلمسها فى محنة الشباب الذى يعانى من الفراغ، ومن البطالة، ومن اليأس فى إقامة حياة اجتماعية طبيعية، فتضعف خيوط انتمائه للمجتمع، وتتزايد عنده النزعة العدائية والرغبة فى التدمير، ومن وراء ذلك شعب مطحون يعيش تحت الوصاية الاقتصادية والسياسية، ولا يكون له دور فعال فيما يجرى على القمة. أما إذا تطلعت إلى المستقبل لتستشرف الهدف الذى تعمل مصر من أجله خلال السنوات العشر أو العشرين أو الخمسين القادمة، فلن تسمع سوى عبارات إنشائية عن مصر عام ٢٠٠٠، وسوف تكتشف أن المصريين يفتقرون إلى المشروع القومى الذى ينتظم طاقاتهم ويشحذ هممهم، ويخلق فيهم روح الجَلَد والصبر والتضحية من أجل الهدف العام الذى تتجه نحوه كل الفعاليات السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

نحن نبحث عن أنفسنا فى هذا العالم الذى يتحرك بسرعة مذهلة نحو المستقبل، فلا نجد سوى الخوف من الحركة باسم الاستقرار وإبقاء الحال على ما هو عليه، فى الوقت الذى تتحرر فيه الشعوب من القهر الاقتصادى ومن الاستبداد السياسي، ومن حكم الفرد أو الطبقة الواحدة أو الحزب الواحد. وفى الوقت الذى تتحرر فيه الدولة من التخلف لتواكب ظروف العصر وتلحق بركب التقدم، نسأل: أين مصر من كل هذا؟! إنها تقف بلا هدف، وبلا أمل قومى عام تسعى إلى تحقيقه، بينما جارتها إسرائيل تواصل الليل بالنهار من أجل إقامة مشروعها الكبير من النيل إلى الفرات، وتستورد الأيدى المدربة فنيا وعسكريا من الاتحاد السوفييتى ومن شرق أوروبا وأمريكا اللاتينية لتحقيق هدفها قبل نهاية القرن العشرين، فإذا سألت: ما الهدف

الاستراتيجي الذى تعمل مصر من أجله؟ فلن تجد!! فقد أصبح الخوف من التغيير سمة بارزة فى الفكر السياسى المصري، حتى سيطر الشلل على مؤسسات العمل السياسي؛ لأن خيوطها تنتهى إلى قبضة الدولة.

فى ظل هذا الشلل القومى العام، وفى ظل الجمود السياسى - تنمو بذور الفتنة، وتتحرك الأصابع الخفية لتعبث فى الظلام من أجل تدمير مصر وتفجيرها ذاتيا بدون احتلال أجنبي. وفى غيبة الديمقراطية الحقيقية ينشأ الفراغ، ومن الفراغ يتولد الصراع، وينشطر المجتمع إلى شراذم وفرق وطوائف وشظايا. وحين يعجز الناس عن ممارسة السياسة ويلعبون بالدين، وحين ينعدم الهدف القومى - ينمو الإحساس الفردى والطائفى والقبلي، وتنشأ جدران العزلة بين فئات المجتمع وتتفكك الروابط الاجتماعية، وتنهار الأعمدة والدعائم التى تقوم عليها وحدة الجماعة الوطنية. وهذه كلها عناصر تغذى نار الفتنة الطائفية، ليس فقط بين المسلمين والأقباط، ولكن بين كل الفئات والطوائف التى يتكون منها المجتمع المصري.

ونحن نبحث عن الدواء لا بد أن نلتفت إلى الماضي، ونستخرج الخبرة التاريخية المصرية فى هذه المشكلة، وسوف نجد أن مصر مرت بظروف مشابهة لهذه الحالة عقب الاحتلال البريطانى لمصر فى أوائل الثمانينيات من القرن الماضي، وبذلت سلطات الاحتلال ما وسعها الجهد على إثارة الشقاق بين الجماعة الوطنية المصرية وتقسيم المصريين إلى فئات وطوائف اجتماعية، وأغلبية وأقلية دينية، وقالوا بكل وضوح إنهم باقون فى مصر لحماية الأقلية المسيحية من الأغلبية

المسلمة. واستمر هذا الحال أربعين عامًا حتى اختمرت عناصر الثورة عند نخبة من أبناء مصر المثقفين، وظهر للوهلة الأولى فى ذهن سعد زغلول أنه لا بد من ظهور مفهوم جديد للجامعة الوطنية المصرية يردها إلى التكوين التاريخي للمصريين، وقوة تماسكهم عبر القرون برغم اختلاف الدين. وشبت ثورة ١٩١٩ على أساس هذا المفهوم الجديد الذى امتزج فيه المصريون قبطًا ومسلمين، ووجدوا فيه سياج الأمان من الخوف والقلق، كما وجدوا فيه صيغة جديدة لقيام الجماعة على أساس الانتماء الوطنى وليس الانتماء الديني، كما هى الحال فى بعض المجتمعات الأوروبية والآسيوية. والمدهش فى هذه النقلة المصرية المبشرة أنها لم تحدث على حساب الدين، بل إنها حدثت مع نمو تيار الجامعة الإسلامية وازدهار الأزهر، أكبر جامعة إسلامية فى العالم، الذى تحول فى غضون الثورة إلى مركز للتسامح الديني، ومنبر لإذكاء الثورة، والتآخى بين المسلمين والأقباط، وفيه خطب قساوسة النصارى، وأحبار اليهود الذين نسوا الجامعة الصهيونية التى يعمل لها كل يهود العالم، حتى قالت إحدى الصحف الفرنسية: «إن المسلمين والأقباط قد التفوا حول سعد الفلاح، سعد الأزهرى المسلم. وهكذا تم اتحاد الصليب بالهلال مما لا نظير له فى أى بلد إسلامى آخر...».

وواجب الأمانة التاريخية يقتضينا كمصريين أن نعترف بدور الوفد المصرى فى تحقيق هذا الامتزاج الفريد بين المسلمين والأقباط، باعتباره المؤسسة السياسية الأم الحاضنة للوحدة الوطنية، وجاء تكوين الوفد فى مستوياته المختلفة وفى قمة قيادته من القبط والمسلمين، وعمل كقيادة للحركة الوطنية على القضاء على

احتمالات التفرقة، ثم وضع دستور ١٩٢٣ على نحو سد أمام سياسات التفرقة ذرائع الإثارة الطائفية أو التدخل فى شئون مصر الداخلية. والشيء الذى يدعو إلى الابتهاج أن هذه السياسة التى وضع قواعدها الوفد المصرى أصبحت معلمًا ثابتًا من معالم السياسة المصرية تلتزم بها الدولة فى مؤسساتها الدستورية، وتسير عليها الأحزاب التى انشقت على الوفد. ومعنى ذلك أن الوحدة الوطنية تحولت إلى قيمة مصرية أصيلة، أو نواة لبناء السلوك الفردى والحزبى والسياسي. وبقيت هذه العلامة المضيئة فى تاريخ مصر الحديث حتى قامت ثورة الجيش فى يوليو ١٩٥٢ فتغير الحال، فألغى الدستور، وحُلت الأحزاب السياسية، وأصبحت ممارسة النشاط السياسى - خارج إطار التنظيم الحكومى - مغامرة تودى بصاحبها إلى السجن. وفى غيبة السياسة عادت قرون الفتنة الطائفية تطل برأسها من جديد، وازدادت حدة الصراعات الدينية على النحو الذى كان واقعًا قبل ثورة ١٩١٩، وبدا كأن مصر تعود إلى الوراء.

إن دور الوفد المصرى فى تحقيق الوحدة الوطنية هو دور تاريخى مشرف يجب أن تعرفه الأجيال الجديدة. فتلك صفحة مضيئة من تاريخ مصر سجلها المؤرخ الجليل المستشار طارق البشرى فى كتابه «المسلمون والأقباط فى إطار الجماعة الوطنية» فهو يقول بصريح العبارة: «لم يكن يمكن أن يبلغ النجاح فى ائتلاف المسلمين والقبط إلى الحد الذى بلغه، ولا أن يكتب له الاستمرار بغير الوفد المصرى وفاعليته فى مزج قوى الأمة المصرية وإنشاء الجماعة الوطنية فى مصر على أساس وطيد، وبلغ الوفد فى هذا الأمر من النجاح ما يعلو أى أمر آخر. وإذا كان هذا هو كل ما أتى به الوفد وثورة ١٩١٩ فكفى به

مغنمًا؛ إذ عصم الجماعة من الانقسام والوهن، وأقامها على أساس من العقل رشيد، وقدر للأمر ما يستحق من خطورة وما يفضى إليه من نتائج، ونما بعناصر الاستنارة السياسية التى جهد فى إرسائها آباء التنوير المصريون طوال القرن التاسع عشر، حتى صارت رغم كل المشاكل التى يرزح المجتمع من أعبائها، واقعًا فعليا ذا وزن راجح على كل ما عداه، فأفلس مؤامرات الاستعمار، وأرسى أسس الدولة والتنظيمات القومية فى المجتمع، ومكن للتطور الاجتماعى والأوضاع الطبقية أن تتبلور على أسس واقعية غير مشوبة. ويمكن القول باطمئنان كاف وبغير كبير مخاطرة إنه لولا جهد الوفد فى هذا الميدان لما وجد الإنجليز أنفسهم مضطرين إلى إلغاء الحماية سنة ١٩٢٢ ولما وجد التنظيم الدستورى النيابى سنة ١٩٢٣ بالصورة التى وجد بها. وكان هذان الأمران - رغم كل نواقصهما - خطوة لا شك فى إيجابيتها، وحصانة لا شك فى أهميتها بالنسبة للتطور السياسى والاجتماعى فيما تلا ذلك من أعوام».

ثم يقول المستشار طارق البشري: «وإذا قيل بحق إن قوة تماسك المصريين - رغم تكوينهم الدينى المتعدد - وإن امتزاجهم التاريخى الطويل هو سبب هذا النجاح، وإن اشتراك القبط والمسلمين فى سائر الطبقات الاجتماعية هو الأساس الموضوعى له - فإن من الحق أيضًا أن كان للجهد الواعى المنظم للتنظيم السياسى (الوفد) فاعليته فى تأكيد التماسك والامتزاج، وفى إنضاج الأسس الموضوعية القائمة، سيما إن كان هناك جهد واع منظم يعمل على فعل النقيض، وكان حماس الجماهير وترابطها خليقًا بألا يدوم، ما لم توجد المؤسسة السياسية المستنيرة المدركة لأسس توحيد الجماعة المصرية ولموجبات هذا

التوحيد. وكان الوفد هذه المؤسسة» .

هذا درس من التاريخ يقدم لنا الخبرة فى معالجة الأسباب التى تقف وراء الفتنة الطائفية الراهنة، وهو درس عملى وليس مجرد خطب وشعارات تفقد أثرها بمجرد إلقائها، وما أعظم ما يحتوى التاريخ المصرى من دروس، ولكن كيف السبيل إلى الإفادة منها حتى نتجنب عثرات الحاضر، ومفاجآت المستقبل .

فهـرس

رقم الإيداع ٢٢٠٧/ ٢٠٠٠
I.S.B.N 977- 09- 0610-7

مطابع الشروق
القاهرة :٨ شارع سيبويه المصرى - ت:٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس:٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

مسلمون وأقباط

من المهد إلى المجد

إن معظم المسلمين المصريين، أو الكثير منهم اليوم إنما هم معظم القبط المصريين أسلموا بالأمس، بمثل ما أن أقباط اليوم هم بقية قبط الأمس الذين استمروا على عقيدتهم السابقة، ومن هنا وحده أيضاً قد نستطيع أن نتفهم وجهة نظر البعض أو تعبيرهم حين يقولون إن المصريين إما أقباط مسلمون، وإما أقباط مسيحيون، يقصدون أن كلمة «قبط» مرادفة لكلمة «مصري». وعلى أية حال، فقبل أخوة الدين والعقيدة وفوقها عمقاً هناك أخوة الوطن والعرق بين الطائفتين، فالكل مصريون قبل الأديان وبعدها، وإذا صح التشبيه المنتزع عن الزواج الطبيعي بين أرض مصر وفيضان النيل، فإن من الصحيح أيضاً أن ذريته هي المصريون جميعاً، فالنيل أبوهم ومصر أمهم.

